الفصل الثاني

عصر الدولة الأموية بالأندلس

- الدولة الأموية بالأندلس.
- عبدالرحمن الداخل.
- هشام بن عبدالرحمن.
- الحكم بن هشام.
- عبدالرحمن بن الحكم (الأوسط).
- محمد بن عبدالرحمن الأوسط.
- المنذر بن محمد بن عبدالرحمن.
- عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن.
- عبدالرحمن الناصر.
- الحكم بن عبدالرحمن الناصر (المستنصر).
- هشام المؤيد بالله.

obeikandl.com

obeikandl.com

الدولة الأموية بالأندلس

تعد الدولة الأموية بالأندلس أكثر مراحل التاريخ الأندلسي استقراراً مع ما شابها من المنازعات والمآسي والآلام والأحزان.

وقبل أن نبحر في خضم هذا البحر المتلاطم لنا وقفة قصيرة على بعض الأحداث التي صاحبت المرحلة الأموية في المشرق، فقد امتدت الفتوحات في العصر الأموي حتى بلغت ذروة سنامها، واستقر الحال لعقود قليلة ما لبثت أن هرمت بعد أن بلغت من العمر ما يبلغه الإنسان في المتوسط، ويمكن تقسيم أثر الدولة الأموية في المشرق إلى ثلاثة آثار كبيرة امتدت حتى عصرنا الحاضر، وأول تلك الآثار تحول السلطة من الاختيار التوافقي إلى نيلها عبر المنازعات والحروب، ومن ثم تلك الفاجعة المؤلمة التي مازال أثرها باقياً، وهي مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في كربلاء وقتل الكثير من أبنائه وإخوانه وعدد غير قليل من آل البيت، وكذلك موقعة الحرَّة التي وقعت في مدينة رسول الله ﷺ حيث بعث يزيد بن معاوية الأموي جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المري، فأباح المدينة للجند وارتكبوا الكثير من الآثام والجرائم وساروا إلى مكة المكرمة وفعلوا فيها الأفاعيل مما زاد المسلمين فرقة وتناقضاً.

والأثر الثاني هو التوسع في الفتح مما جعل الكثير من الأقوام والشعوب تدخل في دين الله أفواجاً؛ ليستمر ذلك الحدث حتى يومنا هذا، وهذا أثر جميل لا ريب.

والأثر الثالث هو سقوط دولتهم في المشرق على يد أبي العباس السفاح الذي استغلَّ السلاح الخفي من حقد ورغبة في الانتقام لمقتل الحسين واستباحة مدينة رسول الهدى ﷺ في موقعة الحرة، فبثَّ أعوانه في كل مكان عندما آلت إليه قيادة المسودة، فقد تتبع بني أمية بعد أن أوكل أمر مطاردتهم إلى عمه عبدالله بن علي، فقتل الكثير من سادتهم ومواليهم ولم يبقِ حتى على النساء والأطفال، وفرَّ بعض منهم مخافة بطشه، فأظهر لهم العفو، واستمر الحال سنة، فأكرم من وفد إليه منهم، ثم فتك بهم وقتلهم شر قتلة في مأساة مهولة شهدت مظاهر قسوة فائقة، وفيه قال الشاعر المحرض على القتل:

obeikandi.com

لا يغرَّنك ما ترى من رجال إنَّ تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السَّوط لا ترى فوق ظهرها أمويا

ولعله سُمِّيَ بالسفَّاح لقوله بمسجد الكوفة عند مبايعته: «فأنا السفَّاح المُبيح، والثائِر المُنيح».

obeikandl.com

عبدالرحمن الداخل

شاء الله تعالى أن يفلت من زمام هذه المطاردة فتى من بني أمية هو «عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك» الملقب بعبدالرحمن الداخل الذي كان له شأن في تاريخ الأندلس، شاب يافع عاش في كنف جده هشام بن عبدالملك بعد موت أبيه معاوية، وكانت أمه بربرية تسمى «راح» من سبايا بيت الخلافة في دمشق.

أفلت من ملاحقة العباسيين له بعد أن قطع النهر سباحة، ثم أمدَّته أخته «أم الإصبع» ببعض المال الذي أرسلته مع مواليه «بدر» و«سالم» وهو في طريق هروبه، واتجه نحو المغرب لينزل على أخواله «نفزة» من برابرة الأندلس وعند وصوله أفريقية علِم بوجوده عبدالرحمن بن حبيب واليها، فأخذ في مطاردته وكاد يقع في أيديهم ليفلت مرة أخرى، وليقضي الله أمراً كان مفعولا.

ونزل لدى إحدى القبائل البربرية، منهم من قال: «زناتة»، ومنهم، من قال: «مكناسة»، وآخرون، قالوا: «مغيلة»، وأيّاً كانت القبيلة التي ضَـيّفَتْه فقد تم المراد، وأرسل بدراً مولاه برسائل إلى الأندلسيين فمهدوا لقدومه وأشاعوا الدعوة إليه، وكان الوضع السياسي مُهَيَّئاً لدخوله فقد كانت الضغائن والإحن على أشدها بين اليمانية والمضرية، وكانت اليمانية تتحين الفرص للانقضاض على المضرية بقيادة «يوسف بن عبدالرحمن الفهري» حاكم الأندلس و«الصُميل» حليفه.

دخل عبدالرحمن الداخل الأندلس بعد أن هيأ له مولاه بدر السبيل إلى نيل المرام، وتسابقت اليمانية للانضمام إليه انتقاماً من المضرية،كما انضم إليه بعض الولاة مثل ابن مساور، وعتاب بن علقمة اللخمي، وابن الصباح، وبينما كان «يوسف بن عبدالرحمن» غازيا في «حليقية» علم بظهوره فرجع قافلاً، فأشار عليه حليفه الصميل بن حاتم بأن يلاطفه، ثم يمكر به لكونه صغير السن قليل التجربة، لكنَّه كان أحذر من أن يخدع، وكانت بداية انحسار أمر يوسف بن عبدالرحمن الفهري قد لاحت عندما انفضت المضرية عنه والتحقت بعبدالرحمن الداخل، حيث لم يبق مع جيش يوسف سوى القليل من

القيسية والفهرية لمكانة الصُميل ونفوذه في قومه. وتقابل الجيشان فانهزم جيش يوسف ليطلب يوسف الصلح وهو يُضمر الانقضاض مرة أخرى عندما تحين الفرصة، فوافقه عبدالرحمن الداخل واشترط عليه الاستقرار بقرطبة، ثم نقض يوسف عهده وجمع حوله العديد من البربر فسار إليه عبدالرحمن الداخل وقضى على جيشه بعد قتال مرير، وفرَّ يوسف ناجياً بنفسه غير أنَّ الخيانة والدسائس وشراء الذمم تأخذ طريقها إلى بعض أعوان يوسف فاجْتُزَّ رأسه وُقدِّم إلى عبدالرحمن الداخل، وقد قيل: إن عبدالرحمن الداخل هو من دبر الاغتيال وخطط له.

كما قام رجل من البربر يقال له «يشتفنا بن عبدالواحد»، كان يُعلم الصبيان، فادعى أنه من أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتسمى بعبدالله بن محمد، فتبعه عدد كبير من البربر ولم يظفر به قادة عبدالرحمن حيث لجأ إلى الجبال، وبعد مدة استخدم عبدالرحمن الداخل سلاح المال مرة أخرى فغدر به رجلان من أصحابه واجتزا رأسه وقدماه إلى عبدالرحمن الداخل، وهنا نجد سلاح المال يسفك دماء الخصوم بدلاً من أن تقطع السيوف رؤوسهم في المعركة.

ولم يَتَسَمَّ عبدالرحمن الداخل بالخلافة احتراما لمقامها فتسمى بالأمير وتبعه مَنْ بعده حتى عهد عبدالرحمن الناصر، وقد كان الأمير قاسياً شديد البأس عالي الهِمَّة، صارماً، جريئاً، لا يهاب الصعاب، قال عنه صاحب «نفح الطيب» نقلاً عن ابن حيان: إنه يماثل أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي وكل واحد منهما أمه بربرية.

وقد وصفه ابن زيدون في كتاب «التبيين»، فقال: إنه أصهب، خفيف العارضين، بوجهه خال، طويل القامة، نحيف الجسم، له ضفيرتان، أعور أخشم، والأخشم الذي لا يشم.

لم يكن عصر عبدالرحمن الداخل بعد استيلائه على الحكم رائقاً كله فقد أذاقته مُنْغِصَات الليالي كما أذاقت غيره، فقد قام العلاء بن مغيث اليحصبي داعياً لأبي جعفر المنصور فوافقه بعضهم فتقاتل الفريقان وانهزم العلاء، فجمع عبدالرحمن الداخل عددا من رؤوس من قتلوا فألقيت في أسواق القيروان ومكة المكرمة سراً ومعها اللواء الأسود، وهو لواء بني العباس، وأرفق معها نُسخاً من كتاب أبي جعفر المنصور إلى العلاء،

فارتاع المنصور، وقال: ما هذا إلا شيطان، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر، أو كلاماً هذا معناه.

وها هو الشمال الأندلسي يثور على الحاكم الجديد، فالشمال يرتبط بنقاط تماس كثيرة مع أوربا المسيحية ويمكن لهذه النقاط أن تكون عوناً كبيراً لدولة الأندلس في رد أعدائها المتربصين بها من الشمال، أو تكون خنجراً يمكن استخدامه لضرب خاصرة العالم الإسلامي في الأندلس؛ لتحدث جراحاً غائرة تقضي على الجسد كله.

وليس هناك مدخل يمكن الولوج منه أفضل من باب الطمع والحقد والحسد، فها هو «سليمان بن يقظان الكلبي» والي برشلونة يتحالف و«الحسين بن يحيى الأنصاري» -وهو من أحفاد الصحابي الجليل سعد بن عبادة وكان والياً لسرقسطة- لخلع عبدالرحمن الداخل لانتزاع ملكه -والله وحده هو الذي يعلم ماذا يبيت أحدهما للآخر- مستغِلّين انشغال عبدالرحمن الداخل بالثورات المتلاحقة في الجنوب والشرق والغرب.

وعندما علم بشقهما عصا الطاعة أرسل إليهما جيشاً بقيادة «ثعلبة بن عبيد الجذامي»، غير أنَّ جيش ثعلبة انهزم شرَّ هزيمة، وتمكن سليمان من أسره، إلا أنَّ خوفهم من عبدالرحمن الداخل جعلهم يحجمون عن التوسع جنوباً، وقادهم طمعهم وحقدهم وتخطيهم بعض الثوابت التي كانت سائدة في عصرهم إلى الاستعانة بملك الإفرنج كارل مارتل (شارلمان) الذي كان موجوداً في شمال غرب ألمانيا لإنهاء بعض الطقوس اللازمة لتنصير السكسونيين الوثنيين الذين مُنوا بهزيمة ساحقة على يده.

وفد إليه سليمان مع مرافقيه وعرضوا عليه مساعدتهم في غزو الشمال الأندلسي وتعهدوا بأن يسلموا له المدن التي تحت أيديهم مثل برشلونة وسرقسطة، وأن يسلماه أسيرهما الثمين العزيز على قلب عبدالرحمن الداخل، وهو ثعلبة بن عبيد القائد الذي يعتمد عليه عبدالرحمن كثيراً.

وقد ذكرت بعض الروايات أنَّ بعضاً من أبناء يوسف بن عبدالرحمن الفهري كانوا مع سليمان؛ حباً في الانتقام من عبدالرحمن الداخل الذي أزال حكم أبيهم وبعثر جنده وقُتِلَ بتدبير منه.

وافق كارل مارتل (شارلمان) على العرض السخي مستغلاً تلك المطامع الدنيئة من سليمان ورغبته في توسيع ملكه والحصول على المزيد من الأرض والمال، وهناك من يرى أن العامل الديني كان حاضراً عند قبوله عرض سليمان وأنه يطمع في إجبار الشمال الأندلسي وربما الأندلس كلها على اعتناق النصرانية كما فعل ضد الأفار وضد السكسونيين.

سار جيش كارل مارتل (شارلمان) وتجاوز الجبال ودخل برشلونة، وسار إلى سرقسطة، وفجأة يحدث تغير في موقف الحسين بن يحيى الأنصاري لأسباب لا يعلمها إلا الله، فربما يكمن السبب في غيرته من سليمان الذي حظي أكثر منه بثقة كارل مارتل (شارلمان)، أو أنه خشي من زوال سلطانه على يد كارل مارتل (شارلمان)، أو الغدر به من قبل الإفرنجي الوافد، أو أنَّ ضميره قد أفاق من غفلته ونازعت قوى الخير عنده قوى الشر فغلبتها، ومهما تكن الغاية فقد أقفل أبواب مدينة سرقسطة ورفض إلحاح سليمان عليه واستبسل في رد هجمات جيش عدوه.

عاد جيش كارل مارتل (شارلمان) أدراجه بعد أن استعصت عليه سرقسطة وأخذ معه سليمان أسيراً، واختلفت الروايات في تبيان سبب عدوله، فمنهم من عزاها إلى خوفه من المجهول بعد أن أدرك عجز سليمان عن تنفيذ وعوده، وخير شاهد على ذلك تمرد الحسين بن يحيى في سرقسطة، وقد تكون عودته بسبب شكِّه في أنَّ سليمان قد أوقعه في شرك قد يقضي على جيشه، وربما يرجع السبب في نكوصه إلى الثورات السكسونية التي ظهرت في بلاده.

عاد أدراجه دون تحقيق مراده وسار بجيشه الكبير يتخطى الجبال، وفي غفلة من الجيش هجم ابنا سليمان «عيشون» و«مطروح» على مؤخرة الجيش الإفرنجي بسرعة فائقة ومهارة رائعة، وانتزعا سليمان بن يقظان ومن معه من الأسرى وما حمله جيش شارلمان من غنائم، ولم يبق في يد جيش شارلمان من الأسرى سوى ثعلبة بن عبيد الذي سلمه له سليمان وقت وفوده إليه أو في أثناء قدومه إلى الأندلس.

وعاد سليمان مع أبنائه إلى برشلونة وكانت الريبة قد أرست أطنابها في قلبي الحليفين السابقين، وأخذ الحسين يتربص بسليمان بن يقظان حيث أرسل له ذات يوم من قتله وهو في المسجد الجامع، ولم يمنعه من ذلك دين، ولم تصده صحوة ضمير، ولم تردعه مروءة.

وبعد مدة من الزمن سار عبدالرحمن الداخل بجيش إلى سرقسطة لقمع تمرد الحسين، وانضم إليه عيشون بن سليمان انتقاماً لمقتل أبيه، وقد نزل الحسين على حكم عبدالرحمن الداخل بعد حصار مرير فأبقاه عبدالرحمن والياً على سرقسطة وأخذ ابنه سعيد رهينة، غير أنه فرَّ من الجيش في أثناء عودته إلى قرطبة، وقد توجس عبدالرحمن الداخل خيفة من عيشون بن سليمان فأمر بقتله.

أما الحسين بن يحيى الأنصاري الذي أبقاه عبدالرحمن الداخل والياً على سرقسطة فقد عاد إليه ابنه سعيد بعد هروبه من جيش عبدالرحمن فنكث العهد وغدر وخان وأعلن العصيان، فغضب لذلك عبدالرحمن الداخل وأرسل جيشاً كبيراً بقيادة «غالب ابن تمام بن علقمة»، فكانت معارك شديدة هزم فيها الحسين وأسر ابنه يحيى، وكان عبدالرحمن الداخل قد عزم على تصفية التمرد في سرقسطة فأمر بقتل يحيى ومن معه، وكان الحسين قد امتنع وتحصن في بعض المواقع فسار عبدالرحمن الداخل بنفسه إلى سرقسطة وقبض على الحسين وجمع غفير من أعوانه وقتلهم جميعاً، أما سعيد بن الحسين فقد فر مرة أخرى.

صفحة مليئة بالطمع والحقد والحسد والانتهازية وغياب الضمير سجلت في أوقات من تاريخ الأندلس في عصر عبدالرحمن الداخل، ولم تكن هذه الصفحات السوداء التي جلبت الدمار والمآسي على الأندلسيين الصفحات الوحيدة، فصفحات البطولة والسعادة كانت موجودة إلاَّ أن هذا الجزء من الكتاب يتناول المآسي التي عاشها الأندلسيون.

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

ومن كرمت طبائعه تحلى ... بآداب مفضلة حسان
ومن قلت مطامعه تغطى ... من الدنيا بأثواب الأمان
وما يدري الفتى ماذا يلاقي ... إذا ما عاش من حدث الزمان
فإن غدرت بك الأيام فاصبر ... وكن بالله محمود المعاني
ولا تك ساكناً في دارِ ذُلٍّ ... فإنَّ الذُلَّ يقرن بالهوان
وإن أولاك ذو كرم جميلاً ... فكن بالشكر منطلق اللسان

واجـه عبدالرحمن الداخل غدراً من نوع جديد، وطمعـاً مُرّاً، وجُرحاً غائراً، فقد أُتِيَ من مأمنه.

فها هو يسـتقدم جميع من نجا من بني أمية إلى الأندلس؛ حتى يكونوا له سـنداً، وفي خاصـرة أعدائه خنجراً، وحتى ينعموا بما فتح الله عليه من رغد العيش، وأيضا ليتباهى عليهم بما نال، فإذا بهم وبال عليه بدلاً من أن يكونوا رِفداً له.

فقد طمع في مقامه ابن أخيه عبيد الله بن أبان بن معاوية وكذلك عبدالسلام بن يزيد ابن هشام المعروف باليزيدي وهو ابن عم عبدالرحمن الداخل وساعدهما أبو عثمان كبير الدولـة، فاكتشـف عبدالرحمـن المؤامرة ولم يجد حرجاً في قتل ابـن أخيه وابن عمه وعفا عن أبي عثمان لجليل أعماله السابقة وقال: هو أبو سلمة هذه الدولة، يشير إلى «أبي سلمة الخلال» الذي كان يلقب وزير آل محمد، وقد تخلص منه العباسيون حين تمهدت الدولة.

كما أن التوفيق قد حالفه في اكتشاف مؤامرة أخرى كان على رأسها «المغيرة بن الوليد ابـن معاوية» ابن أخيه الوليد و«هذيل» ولد الصـميل بن حاتم، فلم يتردد في قتلهما، وقد نقل لنا صـاحب كتاب «المسـهب»، والمقري في «نفح الطيـب»، أنَّ أحد موالي عبدالرحمن الداخل دخل عليه إثر قتله ابن أخيه المغيرة وهو مطرق شـديد الهم، فرفع رأسـه، وقال: «ما عجبي إلاَّ من هؤلاء القوم، سـعينا فيما يضـجعهم في مهـاد الأمن والنعمة وخاطرنا بحياتنا حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا ويسَّـر الله تعالى أسـبابه، أقبلوا علينا بالسيوف، ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به حتى أمنوا ووردت عليهم أخلاف النعم، هزوا أعطافهم، وشـمخوا بآنافهم، وسَمُوا إلى العظمى، فنازعونا فيما منحه الله تعالى، فخذلهم الله بكفرهم النعم، إذ أَطْلَعَنا على عوراتهم، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا في البريء منهم وساء أيضاً ظنه فينا وصار يتوقع من تغيرنا عليه مـا نتوقـع نحن منه، وإنَّ أشَّـد ما علي في ذلـك أخي والد هذا المخـذول وكيف تطيب لي نفس بمجاورته بعد قتل ولده وقطع رحمه؟ أم كيف يجتمع بصـري مع بصـره؟ أُخْرُجْ له الساعة فاعتذر إليه، وهذه خمسة آلاف دينار ادفعها إليه واعزم عليه في الخروج عن هذه الجزيرة إلى حيث شاء». قال: فلما وصلت إلى أخيه وجدته أشبه بالأموات منه بالأحياء،

فآنسته وعرفته ودفعت إليه المال وأبلغته الكلام فتأوه وقال: إنَّ البليغ لا يكون بليغاً في الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه، وهذا الولد العاق الذي سعى في حتفه قد سرى ما سعى فيه إلى رجل طلب العافية وقنع بكسر بيت في كنف من يحمل عنه معَرَّة الزمان وكَلِّه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لا مرد لما حكم به وقضاه.

ورجعت إلى الأمير فأعلمته بقوله، فقال: إنه نطق بالحق، ولكن لا يخدعني بهذا القول عما في نفسه، والله لو قدر أن يشرب من دمي ما عفَّ عنه لحظة، فالحمد لله الذي أظهرنا عليهم بما نويناه فيهم، وأذلَّهم بما نووه فينا، ثم طلب من أخيه الوليد مغادرة الأندلس إلى المغرب».

لقد نافس الكثير من القيادات العربية بالأندلس عبدالرحمن الداخل على الحكم فكان بينهم وقائع مهولة، وخطوب عظيمة، وكانت العاقبة له.

فاسْتَراب من العرب وخشي تغلبهم عليه برغم اعتماد أجداده من بني أمية عليهم ويبدو أنه تذكر قول شاعرهم:

ونحن أناس لا توسط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر

فخشيهم وأبعدهم عن مراكز القرار وقرب القبائل الأخرى مثل أخواله البربر واتخذ الموالي وجعلهم مأمنه وخزينة سره.

ويقال: إن عبدالرحمن الداخل قد بلغه مِنَّةُ بعضٍ مِمَّن أعانه حتى وصل إلى ما وصل إليه وأنَّه نال ما نال بسعده، لا بتدبير عقله، فكتب شعراً قال فيه:

لا يُلف ممتنٌّ علينا قائل ... لولاي ما ملك الأنامَ الداخل
سعدي وحزمي والمهند والقنا ... ومقادر بلغت وحال حائلُ
إنَّ الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا ... أيروم تدبير البرية غافل؟
ويقول قومٌ: سعده لا عقله ... خير السعادة ما حماه العاقل
أبَني أميَّة قد جبرنا صدعكم ... بالغرب رغماً والسعود قبائل
مادام من نسلي إمام قائم ... فالملك فيكم ثابت متواصل

كان عبدالرحمن الداخل كما قال ابن حيان: «راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً بعيد الغور، شديد الحذر، قليل الطمأنينة، بليغاً، مفوهاً، شاعراً، محسناً، سمحاً، طلق اللسان».

إنَّ ما ذكره ابن حيان عن عبدالرحمن الداخل يجسد صفات القائد الذي يريد بناء صرح دائم ويمهد طريقاً لمن يعقبه ويرسخ دعائم دولة تدوم.

تلك الخلال التي ذكرها ابن حيان تدل على القوة والحزم والحذر الشديد، وقد كان الموقف في الأندلس يتطلب ذلك فكان عبدالرحمن يبالغ في حذره، ويتطرف في احتياطاته، ويقسو في انتقامه، ويظلم خَوْفَ الغدر، ويقمع لوَأْدِ الفتنة في المهد، ولا يتورع في النيل من الظالم ومن معه من الأبرياء دون تمييز، فالغاية لديه تبرر الوسيلة، والشك عنده يصبح يقيناً من فرط حذره، فيأخذ بالشك حتى أقرب الناس إليه، فقد قتل أقرب الناس إليه ابن أخيه المغيرة بن الوليد وعبيد الله بن أبان، وقتل كذلك ابن عمه عبدالسلام، كما أبعد أخاه الوليد إلى المغرب، كما لم يتورع عن قتل بعض ممن آزره في محنته ووقف بجانبه يوم وفد إلى الأندلس شريداً، فبدر مولاه الذي أرسله إلى الأندلس للدعوة إليه، والذي استطاع بفضل حنكته تهيئة الأمور له واستغلال التناقضات لمنفعته، ذلك المولى الذي قد رأى فيه عبدالرحمن في بادئ أمره صنيعته فأحسن مكافأته وأعلى منزلته، جرَّده بعد هذا من كل مناصبه وأمواله؛ لأن بدراً احتد في موقف عتاب عبدالرحمن وأسرف في قول ما يراه صواباً، متجاوزاً حدود اللباقة، ولم تفلح جميع المحاولات التي بذلها بدر لاسترضاء سيده عبدالرحمن فلم يصغِ إلى مقاله.

وقد أورد المقري بعضاً من الرسائل المتبادلة بين بدر وعبدالرحمن الداخل في هذا الشأن، فقد أرسل بدر رسالة إلى عبدالرحمن الداخل بعد تجريده من مناصبه قال فيها: «أما كان جزائي في قطع البحر، وجوب القفر، والإقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى، غير الهجر الذي أهانني في عيون أكفائي وأشمت بي أعدائي، وأضعف أمري ونهيي عند

من يلوذ بي، وبتر مطامع من كان يكرمني ويحسدني على الطمع والرجاء، وأظن أعداءنا بني العباس لو حصلت في أيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا فإنا لله وإنا إليه راجعون».

فلما وقع عبدالرحمن على رقعته اشتد غيظه عليه فوقع عليها: «وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك، وسوء خطابك، ودناءة أدبك، ولئيم معتقدك، والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا مكاناً أتيت بما يهدم كل مكان مشيَّد مما تُمنُّ به، مما قد أضجر الأسماع تكراره، وقد حث في النفوس إعادته، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك، وهضنا جناح إذلالك، فلعل ذلك يضمع منك ويردعك حتى نبلغ منك ما تريد إن شاء الله تعالى، نحن أولى بتأديبك من كل أحد، إذْ شَرُّكَ مكتوب في مثالبنا، وخيرك معدود في مناقبنا».

فلما ورد هذا الجواب على بدر سقط في يده وسلَّم للقضاء وعلم أنه لا ينفع فيه قول، ووجه عبدالرحمن من استأصل ماله وألزمه داره، وهتك حرمته، وقصَّرَ جناح جاهه، وصَيَّرهُ أهون من قعيس على عمته، ومع هذا فلم ينته بدر يستلينه، تارة يُذكِّره وتارة ينفث مصدوراً بخط قلمه ما يلقيه عليه لسانه غير مفكر فيما يؤول إليه، إلى أن كتب له: «قد طال هجري، وتضاعف همي وفكري، وأشد ما علي كوني سليباً من مالي، فعسى أن تأمر في إطلاق مالي، وأتحِّد به في معزل لا أشتغل بسلطان، ولا أدخل في شيء من أموره ما عشت، فوقَّع له: إنَّ لك من الذنوب المترادفة ما لو سلب معها روحك لكان بعض ما استوجبته، ولا سبيل إلى رد مالك، فإن تركك بمعزل في بلهنية الرفاهية وسعة ذات اليد والتخلي من شغل السلطان أشبه بالنعمة منه بالنقمة، فايأس من ذلك فإن اليأس مريح». فسكت لما وقف على هذه الإجابة مدة إلى أن أتى عيدٌ فاشتد به حزنه لما رأى من حاجة من يلوذ به وهمهم بما يفرح به الناس، فكتب إليه ذلك في رقعة: «قد أتى هذا العيد الذي خالفت فيه أكثر من أساء إليك وسعى في خراب دولتك ممن عفوت عنه، فتبنَّك النعمة في ذراك، وافتقد ذروة العز، وأنا على ضد من هذا سليب من النعمة، مطروح في حضيض الهوان، أيأس مما أكون، وأقرع السِنَّ على ما كان».

فلما رأى هذه الرقعة، أمر بنفيه عن قرطبة إلى أقصى الثغر وكتب له على ظهر رقعته: «لتعلم أنك لم تزل بمقتك، حتى ثقلت على العين طلعتك، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر، فبالله إلاَّ ما أقصرت، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق به معي الدنيا، ورأيتك تشكو لفلان وتتألم من فلان، وما تقَوَّلُوهُ عليك، ومالك عدو أكبر من لسانك، فما طاح بك غيره، فاقطعه قبل أن يقطعك».

وكان صاحبه الثاني في المؤازرة والقيام بالدولة صهره أبو عثمان بن خالد، وكان ضَمِنَ لأبي الصباح رئيس اليمانية في داخل الأندلس أشياء لم يَفِ بها عبدالرحمن الداخل، بل قَتَل أبا الصباح، فانعزل عبدالله بن خالد وأقسم ألاَّ يشتغل بسلطان قط ومات منعزلاً عن السلطان.

وكان ممن ناصره «تمام بن عقبة» وهو الذي عبر البحر إليه وبشره باستحكام أمره فقتل هشام بن عبدالرحمن ولد تمام المذكور، وكذلك فعل بولد أبي عثمان.

وقد حكي أنه لما هرب من الشام قاصداً أفريقية، نزل عند رجل من البربر يقال له «وانسوس»، وأن الطلب لحق به فخبأته زوجة وانسوس واسمها «تكفات» بين جسدها وثيابها، فلم يعثروا عليه.

وعندما استتب له الأمر وفد إليه وانسوس مع عائلته، فأكرم عبدالرحمن الداخل وفادتهم وأحسن إليهم، وقال عبدالرحمن الداخل ذات يوم مداعباً تكفات زوجة وانسوس: لقد عذبتني بريح إبطيك يا تكفات، على ما كان بي من الخوف، وسعطتني بأنتن من ريح الجيف، فكان جوابها له: بل ذلك كان والله يا سيدي، منك خرج ولم تشعر به من فرط فزعك، فاستظرف جوابها وأغضى عن مواجبتها بمثل ذلك.

ومع أنَّ عبدالرحمن الداخل قد سفك الكثير من الدماء وأضاع الكثير من المال وأفنى السلاح إلا أن الكلمة أجمعت عليه خوفاً وطمعاً ليؤسس دولة بني أمية التي قللت من الفوضى التي كانت سائدة قبل دخوله الأندلس، فمع المآسي التي جناها على الكثير من أبناء الأندلس إلا أنَّ ثماراً قد أينعت وكان قطافها فيما لحق من عصور.

إحدى قلاع مدينة سرقسطة التي استعصت على كارل مارتل (شارلمان) عندما حاول الاستيلاء عليها بمساعدة سليمان العربي.

obeikandl.com

هشام بن عبدالرحمن الداخل

لم يكن هشام أكبر أبناء عبدالرحمن الداخل سناً غير أنَّ أمه أجمل نساء عبدالرحمن وأقربُهُنَّ إلى قلبه واسمها «حُلَل»، وهي جارية أهدتها ابنة يوسف بن عبدالرحمن الفهري إلى غريم أبيها عبدالرحمن الداخل بعد زوال سلطان والدها وانضمامها مع أهلها إلى نساء قصر عبدالرحمن الداخل كما ذكر ذلك ابن القوطية، وهي أم ولد لم تقف عند امتلاك قلب عبدالرحمن فحسب، بل نفذت من خلال ذلك القلب الهائم إلى صنع نفوذ في قرارات عبدالرحمن الداخل المصيرية كان أهمها تجاوزه في ولاية العهد اثنين من أبنائه كانوا أكبر سناً من هشام وهما «سليمان» و«عبدالله المسكين» (البلنسي).

وكان هشام كما تصفه الكتب أبيض، أشهل، مشرباً بحمرة، وبعينه حول. وعلينا أن نكون منصفين، فهشام مع كونه ابن أجمل نساء عبدالرحمن وأحبهم إلى قلبه، فقد كان أهلاً لثقة والده به، حيث وافق سلوكه وثقافته ما في قلب والده، وقد أورد بعض المؤرخين مقارنات بين سليمان الابن الأكبر لعبدالرحمن الداخل وهشام، ومن ذلك قولهم: إن هشامًا إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال، وإذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سخفاً وهذياناً، فيكبر هشام في عين أبيه بقدر ما يصغر سليمان.

قال عبدالرحمن الداخل يوماً لابنه هشام: لمن هذا الشعر؟:

وتعرف فيه من أبيه شمائلاً ... ومن خاله أو من يزيد ومن حُجَر

سماحة ذا، وبِرّ ذا، ووفاء ذا ... ونائل ذا، إذا صحا، وإذا سكر

فقال له: يا سيدي، لامرئ القيس ملك كندة، وكأنه قاله في الأمير أعزَّه الله، فضمَّه إليه استحساناً بما سمع فيه وأمر له بإحسان كثير وزاد في عينه.

ثم قال لسليمان على انفراد: لمن هذا الشعر؟ وأنشد البيتين، فقال: لعلهما لأحد أجلاف العرب، أمَا لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب؟ فأطرق عبدالرحمن، وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية.

وقيل: إنَّ هشاما لمَّا وليَ أمر الأندلس أشخص المنجِّم المعروف بالضبي من وطنه الجزيرة الخضراء إلى قرطبة وكان في علم النجوم بطليموس زمانه حذْقاً وإصابة، فلمَّا أتاه خلا به وقال له: يا ضبي، لست أشك في أنه قد عناك من أمرنا إذ بلغك ما لم ندع تجديد النظر فيه، فأنشدك الله إلاَّ ما نبأتنا بما ظهر لك فيه، فلجلج وقال: اعفني أيها الأمير، فإنني ألممت به، ولم أحقق النظر فيه لجلالته في نفسي، فقال له: قد أجَّلتك لذلك، فتفرغ للنظر فيما بقي عليك منه، ثم أحضره بعد أيام، فقال: إنَّ الذي سألتك عنه جَدَّ مني مع أنِّي والله ما أثق في حقيقته إذ كان من غيب الله الذي استأثر به ولكني أحب أن أسمع ما عندك فيه فالنفس طُلعَة، وأَلْزَمَه الصِّلة أو العقوبة، فقال: اعلم أيها الأمير، أنه سوف يستقر ملكك، سعيداً جدُّكَ، قاهراً لمن عاداك، إلاَّ أنَّ مُدَّتك فيه فيما دلَّ عليه النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: يا ضبي، ما أخوفني أن يكون النذير كلَّمني بلسانك، والله لو أنَّ هذه المدة كانت في سجدة لله تعالى لقلَّت طاعة له، ووصله وخلع عليه، وزهد في الدنيا والتزم أعمال البر.

وقد أنجبت تلك الحادثة حاكماً خيِّراً تقيّاً يخشى الله في السر والعلن ويحرص على نشر الدين، وفعل الخير، ونصرة المظلوم، ومواساة المكلوم، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكُوَر، فيسألون الناس عن سيرة عُمَّاله، ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إلى حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ولم يستعمله بعد ذلك.

وكان شجاعاً، عادلاً، تقياً، ورعاً، جمَّ التواضع، محباً للخير، تولى الحكم شاباً يبلغ الثلاثة والثلاثين عاماً، وقد وصفه صاحب العقد الفريد وصفا طيباً فقال عنه: الكامل المروءة، الحاكم بالكتاب والسنة، الذي أخذ الزكاة على حلها ووضعها في حقها، لم يعرف عنه هفوة في حداثته ولا زلة في أيام صباه، وكان يطوف بأسواق قرطبة؛ ليسمع المظالم، وكان يذهب إلى المسجد في المطر الغزير، وكان يصر أموالا في صرور، ويخرج بها بين المغرب والعشاء، يتفقد المسجد فيعطي لكل من وجد فيه صرة تشجيعاً للناس على ريادة المساجد، وقال عنه ابن خلدون: «إنه كثير الخير والصلاح، وكان كثير الغزو والجهاد، وهو الذي أكمل بناء الجامع بقرطبة الذي كان أبوه شرع فيه، وأخرج المصرف لأخذ الصدقة على الكتاب والسنة».

ومع سيرته التي أجمع المؤرخون على أنها تتَّسم بالورع وحب الخير، فقد كان شديد الحزم في توطيد الحكم، لا يركن إلى الراحة، ولا تسري إليه غفلة.

لم يطب لأخيه سليمان تولِّيه الحكم، وهو الأكبر سناً، فهو يرى أنه الأحق برغم وصاية أبيه، فقام بثورة مناهضة وانضم إليه أخوه عبدالله المسكين، فلم تجد ثورتهما القبول من الناس ولم يبلغا شأوهما، ولم ينالا بغيتهما، فاضطر سليمان إلى طلب الأمان والعفو فاستجاب له أخوه وأعطاه ستين ألفاً على أن يغادر إلى المغرب وسار معه أخوه عبدالله.

كما يجدر بنا الإشارة إلى حادثة حدثت في زمن والده عبدالرحمن الداخل، وذلك أنَّ الشاعر أبا المخشي عاصماً بن زيد قد مدح سليمان بن عبدالملك الداخل فظنَّ أخوه هشام بن عبدالرحمن أنَّ في ذلك الشعر الذي قاله تعريضٌ به فاستدعاه هشام وعاقبه أشدَّ عقاب، وذلك بأنْ سَمَلَ (فقأ عينَيه)، وهناك من قال: إنه قطع لسانه أيضا، والأقرب للصحة أنَّه سَملَ عينيه ولم يقطع لسانه. وعندما علم والده الأمير عبدالرحمن الداخل بالأمر دفع له دِيَّةَ عينيه مضاعفةً كما أنَّه منحه ألْفَي دينار وعَنَّفَ ابنه هشام على فِعلتِه، كما أنَّ هشامًا نفسه قد عاد إلى رشده وعطف عليه ودفع له دِيَّةً مضاعفةً أخرى، وللدلالة على أنه لم يقطع لسانه شعرُه في العمى:

خضعت أم بناتي للعدا ... أن قضى الله قضاء فمضى
ورأت أعمى ضريرا إنما ... مشيه في الأرض لمسٌ بالعصا
فاستكانت ثم قالت قولة ... - وهي حرَّى - بلغت مني المدى
ففؤادي قرح من قولها: ... ما من الأدواء داء كالعمى

كما قام عدد من ولاة الشمال بثورات عديدة لم يكتب لها النجاح، فوظف تلك الثغور في الجهاد والفتوح وعمل على التقريب بين الثقافات بجعل اللغة العربية لغة التدريس في معاهد النصارى واليهود مما يسر لهم معرفة المزيد حول الإسلام.

وفي عصر هشام انتشر مذهب الإمام مالك الذي يرتبط به هشام روحياً من خلال بُغضه لبني العباس، وكان مذهب الأوزاعي هو السائد في الأندلس، بل في معظم العالم الإسلامي حتى تولى هشام الحكم فنشر مذهبه واستقدم كثيراً ممن تتلمذ على يده من

أهل الأندلس وأهل المشرق، وقرَّب الفقهاء والعلماء فكان لهم نفوذ غاب في عهد أبيه عبدالرحمن الداخل. وكأنَّ هشامًا قد حدَّثته نفسه بما نظمه الإمام الشافعي فيما بعد في شعر قال فيه:

يا من تعزَّزَ بالدنيا وزينتها	**الدهر يأتي على المبني والباني**
وَمَنْ يَكُنْ عِزُّه الدنيا وزينتَها	**فعزُّه عن قليل زائل فاني**
واعلم بأنَّ كنوزَ الأرض من ذهبٍ	**فاجعلْ كنوزَكَ من برٍّ وإيمان**

تأهب هشام لمحاربة الإفرنج بالشمال واختار لذلك عبدالملك بن عبدالرحمن بن مغيث ونازل بعض الولاة الذين تحالفوا مع الإفرنج في الثغور، وعندما علم «شارلمان» بزحف المسلمين أمر ابنه «لويس» لصدهم فأرسل جيشاً وتقابل الجيشان ووقعت معركة لم يكن فيها منتصر ولا مهزوم، غير أنَّ المسلمين جنوا الكثير من الغنائم حتى بلغ خمس الغنائم خمسة وأربعين ألفاً من الذهب.

كما ثار البربر في «رندة» وخلعوا الطاعة فأرسل إليهم هشام جيشاً بقيادة عبدالقادر بن إبان، وقتل كثيراً من البربر. وسيرَّ حملة إلى «جليقة» فانتصر فيها وقُتِلَ كثيرٌ من النصارى وأيضاً من المسلمين وعاد الجيش الأموي بعد أن حاز بعض الحصون.

والواقع أنَّ عهد هشام بن عبدالرحمن ليس فيه من الأحداث ما يمكن الإشارة إليه من ناحية التوسع في الأرض أو فقدها، كما أنَّ الفتن الداخلية كانت فتناً محدودة أمكن السيطرة عليها قبل استفحالها، فكان عهداً ساده الاستقرار والخير ونشر الدين، لا سيما المذهب المالكي.

obeikandi.com

الحكم بن هشام

تولى الحكم وعمره اثنان وعشرون عاماً، وبقي في الحكم سبعة وعشرين عاماً، وأمه أم ولد تدعى «زخرف». وكان على نقيض أبيه الزاهد التقي الورع المتواضع جليس الفقهاء، فهو الطاغية المسرف ذو الآثار السيئة القبيحة كما ذكر صاحب «المعجب»، وكان منهمكاً في لذاته، ميالاً للهو والبذخ، يؤثر مجالسة الندماء، مولعاً بالصيد، متكبراً، مسرفاً في الأبهة، وهو يماثل جده عبدالرحمن الداخل في القتل وسفك الدماء وقاعدة «الغاية تبرر الوسيلة»، يقتل بالظِّنَّة، ويأخذ البريء بجرم المذنب، لكنَّ جَدَّه كان متواضعاً، لينَّ المعشر، ويسير في الجنائز ولم يتخذ حُجاباً، بينما الحكم كان طاغية استكثر من المماليك والحاشية والترفع عن الناس.

لقد تولى هذا الطاغية الحكم بعد أبيه الذي كان النفوذ في عهده بيد الفقهاء والعلماء الذين أدناهم مثل يحيى بن يحيى الليثي وطالون بن عبدالجبار وهما من أعظم فقهاء المالكية.

هذه النقلة الكبيرة من سلوك حاكم يحرص على تنفيذ تعاليم الدين الإسلامي ويأنس بمجالس الفقهاء والعلماء الذين قوي نفوذهم، إلى سلوك حاكم لم يكن سلوكه الشخصي أو تطبيقه العملي متوافقاً مع التعاليم الإسلامية جعل المجتمع الأندلسي يعيش مأساة من نوع جديد تتمثل في البعد الاجتماعي، إضافة إلى البعد السياسي، فتقمُّصُ الدولة سلوكًا ومن ثَمَّ خلعه وتبنِّي نقيضِه جعل المجتمع الأندلسي بأسره - عرباً وبربراً وبلديين «مولدين» - يعيش في فوضى اجتماعية أينعت عن حروب وخطوب واستمرار في مسيرة ضياع الفرص وجنوح عن نبل المقصد ومن ثم مأساة أخرى من مآسي الأندلس.

ولنا أن نشيد ببعض الصفات التي يمتلكها الحكم بن هشام التي ساعدت على صون الحكم الأموي من الانهيار، ومنها مباشرته الأمور بنفسه وعدم الاعتماد على غيره، وأيضاً شجاعته وحسن تدبيره العسكري، وإنفاق المال للتجسس على أعدائه واستمالة من يرقُّ قلبه منهم لقرع الدنانير.

وما إن تولى الحكم شؤون الأندلس حتى خرج عمَّاه سليمان وعبدالله يعاودان الكرة بقناعة منهما أنهما أحق بالولاية من الحكم، وقد حاولا إقناع ابن الأغلب صاحب أفريقية في الأمر، غير أنه لم يستجب لبغيتهما.

وبعد أن يئسا من مناصرة ابن الأغلب توجها إلى داخل الأندلس، متسللين يحثان الناس على الثورة، فانطلق عبدالله صوب الشمال، مُيَمِّماً إلى غريمهما وغريم دولتهما (شارلمان) راجياً منه العون على ابن أخيه، وهي مأساة إضافية شهدتها الأندلس بأيدي مروانيٍّ يجلس ابنُ أخيه على كرسي الحكم.

رحب (شارلمان) بقدوم عبدالله ووجدها فرصة سانحة للنيل من الوجود الإسلامي في الأندلس إن لم يكن القضاء عليه وسيَّر (شارلمان) ابنه لويس وسار متجهاً جنوباً ومالأه بعض المناوئين مثل الأخوين عبدالملك وعبدالكريم ابنا عبدالواحد بن مغيث.

عندما علم الحَكَم بالأمر سار بجيشه إلى الشمال فخشي لويس من عواقب الأمور ونَكَث بعض القيادات لعهودهم فآثر الغنيمة والعودة تاركاً الأمور لأعنتها.

وعندما أدرك زعماء الثورة من غير بني مروان اتجاه الأمور، آثروا السلامة وطلبوا العفو والعودة إلى الطاعة، أما عبدالله المسكين «البلنسي» عمُّ الحَكَم بن هشام فقد اتصل بأخيه سليمان الذي استطاع أن يحشد كثيراً من الأنصار، لا سيما من البربر وحاول الهجوم على قرطبة في محاولتين فشل فيهما جميعاً.

ولحق جند الحكم بسليمان واجْتُزَّ رأسه مع عدد كثير من معاونيه وطيف بها في أسواق قرطبة، بينما استطاع عبدالله المسكين «البلنسي» الفرار إلى بلنسية وطلب العفو من الحكم فعفا عنه بشرط بقائه في بلنسية، وأرسل عبدالله ابنه عبيد الله فزوجه الحكَم إحدى أخواته.

لم يتوقف الإفرنج المتربصون بالمسلمين والطامعون فيما تحت يدهم عن إرسال الحملات المتوالية فقد عاد لويس مرة أخرى بجيشين كبيرين وعزم على تحقيق النصر، فدخل برشلونة بعد صراع مرير ومقاومة باسلة من أهلها، وجعل عليها حاكماً من أهلها

النصارى ليخسر المسلمون بذلك أهم ثغر في شمال مملكتهم ويقيم الحاكم الجديد لبرشلونة إمارة خاصة به غير خاضعة للإفرنج، وبهذا ينحسر الحكم الإسلامي إلى الجنوب بعد أن فقد سيطرته على الشمال الإسباني.

هذا الحدث المأساوي كان نتيجة الاقتتال الداخلي ليتجسد في خسارة أرض ظلت تحت الحكم الإسلامي أكثر من مئة عام، وهي نذير بداية خسائر متلاحقة استطاع بعض المصلحين ترميم بعض الأنقاض إلا أن النهاية آلت إلى خسارة كاملة للأندلس.

بعد ثورة الأقرباء وغزو الإفرنج حلت مؤامرة أخطر كانت غايتها خلع الخليفة الحكَم وإبداله بالمنذر أخيه، وكان قادتها هذه المرة مجموعة من الفقهاء والعلماء المالكية الذين كان نفوذهم سائداً في عصر هشام وكانت كلمتهم مسموعة لديه ولهم الحظوة دون سواهم ونالوا مراتب متقدمة في الولايات والجيش مثل يحيى بن يحيى الليثي وطالون بن عبدالجبار وعيسى بن دينار.

وقد ساعدهم على الثورة كون المتربع على كرسي الحكم شاباً شغوفاً بالبذخ والإسراف، مقبلا على اللهو والمجون، طاغية في تعامله، متعاليا على من حوله.

لقد وجد هؤلاء الفقهاء أنَّ من واجبهم الديني تصحيح نهج سلوكي لحاكم يفترض أن يكون قدوة مثل أبيه أو أن يكف عن المجاهرة باللهو.

وربما كان الحافز الدنيوي عاملاً أساسياً في مؤامرتهم تلك، لفقدهم مكانة يرونها حقاً لهم، فأخذوا يحثون الناس على الورع، وأحدثوا إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل، وأمروا المنشدين بأن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعرض بالخليفة الحكَم مثل أن يقولوا: «يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه، المصر على كبره، المتهاون بأمر ربه، أفق من سكرتك، وتنبه من غفلتك».

كانت أفعال الحكم تصنع أرضية خصبة لقبول أقوال الفقهاء، فانضم إليهم جمع من الولاة وعامة الناس من العرب وغيرهم وهجموا على قصره للوقوع به.

حكى ابن حيان: أنه لما تُسُوِّرَ عليه القصر وأحس بالشر قال لأحظى غلمانه: اذهب إلى زوجتي فلانة وقل لها أن تعطيك قارورة الغالية (قارورة عطر) فأبطأ الغلام وتلكأ، فأعاد ذلك

عليه فقال: يا مولاي، أهذا وقت الغالية؟ فقال: ويلك يا ابن الفاعلة، بم يُعرَف رأسي إذا قُطِع من رؤوس العامَّة إن لم يكن مُضمَّخاً بالغالية؟ إنَّه الغرور حتى في أحلك الأوقات وأحرجها.

غير أنَّ جيش الحكم أحاط بالفقهاء قبل بلوغهم مرامهم فقتل منهم جمعاً غفيراً وهدم البيوت وأحرق المساجد وصلب منهم أكثر من سبعين رجلاً باتجاه مشارف القصر، وكان من ضمن المقتولين عمَّاه مسلمة المشهور بكُليب وأمية ابنا عبدالرحمن لارتيابه بهما، مع أنَّهما لم يباشرا الحرب. وبسبب هذه الواقعة وهدمه لبيوت الفقهاء في مكان يقال له الربض سمي الحَكَم الربضي.

مَنْ يا ترى يناصر مثل هذا مع إجماع عناصر المجتمع على كرهه من عرب وبربر ومولدين وفقهاء؟

لقد كوَّن حوله عددا من المرتزقة واستكثر من الحشم والخدم واتخذ المماليك وكان يسميهم الخُرس لعُجمتهم، وكانت له عيون تطالع أحوال الناس، وكان معظم جنده من الصقالبة الذين يتم جلبهم رقيقاً من بلاد الإفرنج وحوض البحر الأبيض المتوسط، ويتم تعليمهم الإسلام وحمل السلاح وخصيهم؛ ليكونوا حماة حكمه، كما يتم تعليمهم شؤون القصر ومراسيمه ليصبحوا قادة في السنوات اللاحقة، وقد أثبتوا كفاءتهم وولاءهم يوم الربض، فأعتق معظمهم وأغدق عليهم.

وقد قال شعراً لما قَتَلَ أهل الربض من الفقهاء ومعاونيهم وهدم منازلهم:

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعاً ... وقِدْماً لَأَمْتُ الشَّعْبَ مذ كنتُ يافعاً
فسائل ثغوري: هل بها اليوم ثَغرة ... أبادرها مُستنضيَ السيف دارعاً
تنبئك أني لم أكن في قراعهم ... بوان، وقِدْماً كنت بالسيف قارعاً
وهل زدت أن وفَّيتهم صاع قرضهم ... فوافوا منايا قدِّرَتْ ومصارعا
فهذي بلادي، إنَّني قد تركتها ... مِهاداً ولم أترك عليها منازعاً

السلوك المشين للحَكم جعله يجلب الكثير من المآسي على الأندلس، منها الحروب الداخلية، ومنها تأصيل أطماع المتربصين في الشمال الأندلسي وضياع برشلونة، ومنها

التغير الإستراتيجي الذي بدأه جده عبدالرحمن فرسَّخه الحَكَم ألا وهو الاعتماد على الخدم والرقيق والمماليك والصقالبة، والبعد عن العرب؛ خشية أطماعهم، وقد أدت هذه الإستراتيجية الخاطئة إلى فقدان الأندلس فيما بعد.

وعلينا أنْ نذكر أنَّ حكم الحَكَم الذي امتد نحو سبعة وعشرين عاماً أفرز عدداً من المبرزين في شتى المجالات، ففي الشعر برز عباس بن ناصح الثقفي الجزيري الذي لم يقتصر نبوغه على الشعر، بل كان عالماً بالفلك والفلسفة واللغة، وولاه الحكم قضاء الجزيرة مسقط رأسه.

وكان هناك يحيى الغزال البكري الذي لديه علمٌ بالفلك والفلسفة، وشاعر رقيق سمي بالغزال لجماله، يشبب بالنساء في أشعاره، وقد اتهم في عقيدته، وكان يتعرض للفقهاء في نثره وشعره دون احترام أو أدب، فسخطوا عليه، وهو القائل فيهم:

لست تلقى الفقيه إلا غنياً ... ليت شعري من أين يستغنونا
نقطع البر والبحار طلاب ... الرزق والقوم هاهنا قاعدونا
إنَّ للقوم مضرباً غاب عنا ... لم يصب قصد وجهه الراكبونا

وقد هجا الغزال القاضي يخامر بن عثمان بن حسان، وكان القاضي يعامل الناس بخلق صعب، ومذهب وعر، وصلابة جاوزت المقدار، فتسلطت عليه الألسن وكثرت فيه المقالة، فقال فيه:

فسبحان من أعطاك بطشاً وقوة ... وسبحان من ولى القضاء يخامرا

وقال في قصيدة أخرى:

قفاك قفا خرباً ووجهك مظلماً ... وعقلك ما يسوى من البعر درهما
فلا عشت مودوداً ولا عشت سالماً ... ولا متَّ مفقوداً ولا متَّ مسلما

ومن أشهر الشخصيات العلمية التي عاشت في عهد الحكم «عباس بن فرناس» وهو بربري الأصل، كان عالماً فيلسوفاً كيميائياً فلكياً موسيقياً ماهراً في الصناعة فقد صنع آلة سماها «الميقاتة» وهي التي تحدد الوقت،كما صنع الزجاج من الحجارة، وهو أول

مـن حاول الطيران حيث جعل لنفسـه جناحين وطار بهما فسـقط، وقـد اتهم عباس بن فرناس بالزندقة، وقد يكون لاندهاش الجهال باختراعاته سبب في اعتقادهم أنه يتعامل مع مخلوقات أخرى، غير أنَّ القضاء لم يجد سبيلاً إلى إدانته وقد عمَّر طويلاً حتى عهد حفيد الحَكَم الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحاكم.

obeikandl.com

البرج الذهبي: أحد أبراج مدينة أشبيلية

وقد بني هذا البرج مع برج آخر مقابل له وتم الربط بينهما بسلسلة حديدية لمنع عبور النورمنديين (المجوس كما يسميهم المؤرخون العرب) عبر النهر إلى الأندلس.

obeikandl.com

عبدالرحمن بن الحكم (الأوسط)

ويلقب بعبدالرحمن الأوسط وأمه أم ولد اسمها «حلاوة» تولى الحكم وعمره واحد وثلاثون عاماً بعد أنْ مهَّدَ له والده الأمر بحزمه وعزمه، غير أنَّ والده قد سنَّ سناً تجنَّب ابنه عبدالرحمن الأوسط بعضاً منها وتمسك ببعضها الآخر.

سار عبدالرحمن سيرة أبيه في البذخ وبناء القصور، والاحتجاب عن العامة، وحب سماع الموسيقى، والشغف بالنساء، لكنه لم يجاهر بمعصية ولم يقتل بالظنة ولم يكن جباراً قاسياً.

كان متسامحاً، شغوفاً باقتناء الكتب حيث كون مكتبة كبيرة، مولعاً بالأدب، إدارياً فذاً، أحاط نفسه بثلَّة من الكفاءات العالية، سواء من الوزراء أو الفقهاء وكان دقيقاً في اختيار قيادات الجيش والقضاة، وامتد حكمه واحداً وثلاثين عاماً كان همه فيها مزيداً من الفتوح، فأشغل الناس ببلوغ الغاية بدلاً من التناحر الداخلي، إلا أنَّ عهده مع ذلك لم يخل من منافسات ومماحكات.

بدت في عهده ظواهر جديدة مثل ثورات المستعربين «النصارى أهل الذمة الذين بقوا على نصرانيتهم تحت الحكم الإسلامي» وهجمات النورمانديين الذين تُسميهم المصادر العربية القديمة المجوس؛ لأنه لا دين لهم، وهم سكان السويد والدنمارك وشمال ألمانيا وغيرها من تلك المناطق.

كانوا قوماً غير متحضرين، يستخدمون البحر وسيلة لمباغتة المدن المتحضرة؛ لينهبوا ويسلبوا ما يقع تحت أيديهم ثم يعودوا أدراجهم.

وفي عهده تم إرسال السفراء إلى قيصر القسطنطينية وهي خطوة للتحرش بالدولة العباسية، فعلا كعبه لدى الأمم الأخرى وذاع صيته.

وعلينا أنْ نذكر أنَّ عصر عبدالرحمن الأوسط لم يكن عصر مآس في الأندلس بل عصر رخاء واستقرار في الغالب، وفتوح وتشييد قصور ومساجد، وابتكار أساليب جديدة في الري وغيره من أنشطة، وحتى الموسيقى تطورت في عصره باستقدامه زرياب.

مع ذلك لم يخل عصره من منغصات على النمط القديم، فها هو عمٌّ أبيه عبدالله المسكين «البلنسي» يقود ثورة عليه مع كبر سنه، ويسير في جمع غفير لانتزاع الحكم من عبدالرحمن، فيموت في الطريق قبل الوصول إلى مقصده، ليتصرف عبدالرحمن الأوسط بحكمة حيث تكفل بأولاد عمِّه وضمهم إليه وأكرمهم وعفا عمن سار معهم.

وكانت الحروب مع الثغر الشمالي قائمة تارة لنصرة مستغيث وتارة رغبة في صَدِّ العدو. وقد مُنِيَ «لويس» ملك الإفرنج بهزيمة ساحقة على يد جيش عبدالرحمن الأوسط بعد انضمامهم إلى «البشكش» الذين استغاثوا بالمسلمين فأغاثوهم، وعاود الإفرنج بقيادة حاكم برشلونة التابع لهم التحرك صوب المسلمين فسار الجيش الإسلامي من قرطبة بقيادة عبيد الله بن عبدالله المسكين «البلنسي» الأموي فأوقف تحركهم وسار إلى الشمال ليصل إلى فرنسا، لكنَّه عاد بعد أن بلغ مراده ولم يحاول الاحتفاظ بما أصاب من أراض.

لجأ الإفرنج إلى وسيلة أخرى قديمة حديثة ألا وهي إشغال المسلمين من الداخل من خلال إثارة النعرات القبلية والمذهبية، فقد ثار أحد البرابرة واسمه محمود بن عبدالجبار وانضم إليه النصارى من أهل الذمة فسار إليهم عبدالرحمن الأوسط بنفسه، فانهزم محمود وفرَّ مع المقربين منه.

وكانت لمحمود أخت رائعة الجمال، فارسة شجاعة ذائعة الصيت، فنزل مع أخته على «ألفونسو الثاني» فأجاره وأكرم وفادته، وبعد مدة من الزمن عنَّ لمحمود العودة إلى قرطبة طائعاً فراسل عبدالرحمن الأوسط في ذلك وعلم «ألفونسو» بالمراد فأحاط بقصره وقتله وسبا ذويه ومن ضمنهم أخته المشهورة، فكانت من نصيب أحد الأساقفة، فتحولت إلى الديانة النصرانية وتزوجها الأسقف فأنجبت أسقف «باقب» المشهور.

لم يفتأ الإفرنج عن مواصلة الدسائس، فحاولوا تجربة مكيدة أخرى من المكائد، فاتجهوا إلى العامة وذوي الحرف والمتشردين، واختاروا لذلك أحد الحدَّادين بطليطلة واسمه «هاشم الضراب»، والتف حوله عدد غير يسير من البربر وأهل الذمة وبعض العامة، فأرسل عبدالرحمن الأوسط له «محمد بن رستم» في عدد من الجند، فكانت معركة ضارية انهزم فيها «هاشم الضراب»، ولم تهدأ طليطلة بعد ذلك، فقد ظهرت

الأسلحة الخفية هذه المرة من جانب المتربصين القاطنين في الشمال مستغلين التنوع المذهبي والعرقي، فقامت عدة ثورات بطليطلة اضطرت عبدالرحمن الأوسط للذهاب بنفسه في جيش كبير لإخضاعها، فخضعت.

الدسائس والمكائد تعود مرة أخرى ويساعد عليها سلوكٌ خاطئٌ لبعض الولاة، فقد حكى ابن حزم أنَّ «موسى بن موسى القسي» أحد ولاة عبدالرحمن الأوسط كان من نسل «الكونت كاسي» من أشراف القوط، وكان جده الأعلى حاكماً للثغر الشمالي عندما فتح موسى بن نصير تلك الثغور، واعتنق الإسلام على يد الخليفة الوليد بن عبدالملك في المشرق فحافظ بذلك على ماله وسلطانه وعاد إلى الأندلس وبقي زعيماً في قومه الذين عرفوا فيما بعد بالمولدين، وقد مال إلى المضرية ضد اليمانية في أثناء الحروب العرقية، وسار أحفاده سيرة أجداده في الفروسية والقيادة وظلوا معتزين بأصلهم القوطي النبيل، وصاهروا بعض أمراء النصارى بصفتهم من الطبقة الحاكمة في نصرانيتهم وإسلامهم حتى وإن أصبحوا من موالي الخليفة الوليد بن عبدالملك.

وولاَّه عبدالرحمن ولاية «تطيلة» ثم بدا لعبدالرحمن أنْ يتولى «عامر بن كليب» على تطيلة وأخوه «عبدالله بن كليب» على سرقسطة فما كان من عامر بن كليب إلا أن اعتدى على أملاك موسى وخرَّب حدائقه، كما أنَّ عبدالله بن كليب اصطفى أموال أخِ موسى لأمه «بنقة بن ونقة»، فما كان من موسى إلا الخروج عن الطاعة والتحالف مع زعيم البشكش «غرسية» فكانت معركة عنيفة كَمَنَ فيها المسلمون لعدوهم فخرج موسى وفرَّ هارباً، بينما قتل ابن عمه وبعض من أعوانه المقربين.

ونقل لنا ابن خلدون رواية عن الحادثة، فقال: «وفي سنة ستة وعشرين بعث عبدالرحمن العساكر إلى أرض الإفرنجة، وانتهوا إلى أرض سرطانية وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة، ولقيهم العدو فصبروا حتى هزم الله عدوهم، وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود ووقعت بينه وبين بعض قواد عبدالرحمن ملاحاة وأغلظ له القائد فكان ذلك سبباً لانتفاضته، فعصى على عبدالرحمن وبعث إليه الجيوش مع الحارث بن بزيع فقاتله موسى وانهزم وقتل ابن عمه ورجع الحارث إلى سرقسطة.

ثم زحف إلى تطيلة وحاصر بها موسى حتى نزل عنها على الصلح وأقام الحارث بتطيلة أياماً ثم سار لحصار موسى فاستنصر موسى بغرسية من ملوك الكفر فجاءه وزحف الحارث فأكمنوا له فلقيهم على النهر وأوقعوا به وأسروه وقد فقئت عينه.

واستشاط عبدالرحمن لهذه الواقعة وبعث ابنه محمداً في العساكر سنة تسع وعشرين وحاصر موسى بتطيلة حتى صالحه، وتقدم فأوقع بالمشركين وقتل غرسية الذي أنجد موسى على الحارث ثم عاود موسى الخلاف فزحفت إليه العساكر فرجع إلى المسالمة ورهن ابنه عبدالرحمن على الطاعة فقبله عبدالرحمن الأوسط وولاه تطيلة فسار إليها واستقرت في عمالته».

من هنا يظهر أنَّ عبدالرحمن الأوسط يحاول تجنب القتل والانتقام؛ خشية الاقتتال الداخلي، فمرامه يعلو إلى الرخاء ومزيد من الفتوح لأجل ذلك قلَّت المآسي في عصره.

وحدث آخر يظهر على الساحة الأندلسية في عهد عبدالرحمن الأوسط، لم يكن هذا الحدث من صنع الإفرنج أو البشكش أو غيرهم، كما لم يكن ذلك لسبب عرقي أو مذهبي، ولم تؤججه المكائد والدسائس، بل هو حدث بذاته، فقد قدمت من الشمال عبر البحر نحو ألف سفينة عليها رجال شداد شقر سماهم المسلمون المجوس؛ لأنه لا دين لهم، كما سموهم النورمانديين، نزلوا البر الأندلسي واقتحموا القرى البحرية ووصلوا إلى أشبيلية التي لم تكن محصنة، فلم يستطع المسلمون مقاومتهم، فعاثوا فساداً وقتلاً.

أرسل عبدالرحمن الخيل لإنقاذ البلاد من هذا الهجوم الغريب بوجوه جديدة، وعبر البحر الذي لم يعتادوا ركوبه ذلك الوقت ولم يكن لديهم من السفن ما يستطيعون به منازلتهم في البحر، فقدم الخيل ولحقها الجيش فكانت واقعة قتل فيها الكثير من المجوس وقيل: إنَّ عدد القتلى بلغ نحو ألف، وعدد الأسرى أكثر من أربع مئة، ليفِرَّ ما بقي من المجوس ويتحصنوا فيما بقي من سفنهم، وقد قتل المسلمون أسراهم وسملوا أعينهم وصلبوهم على جذوع النخل.

وافتدى المسلمون بعض أسراهم بما يستطيعون من سلع، وكان المجوس يستجيبون؛ لأنَّ مرادهم يكمن في النهب والسلب وليس الاستقرار والاحتفاظ بالأرض، وتوقفوا في أثناء انكسارهم في «ليلة» و«باجة» ثم «أشبونة» ثم غادروا الأندلس.

وكان «نصر الخصي» مولى عبدالرحمن الأوسط والأثير لديه، قائد الحملة ضد الغزو الجديد، فأغدق عليه عبدالرحمن ووصله بصلات كبيرة.

هذه الحادثة المؤلمة كانت الانطلاقة لتحصين الثغور وبناء الأسطول البحري الأندلسي الذي وصل في عهد عبدالرحمن الأوسط إلى مئتي سفينة حربية.

ويثور مرة أخرى موسى بن موسى القسي ناقضاً للعهد وساعده أخوه لأمه ابن ونقة أمير بنبلونة، فيرسل له عبدالرحمن جيشاً فيهزمه ويعود للطاعة مع أخيه لأمه، ويقدم ولده إسماعيل رهينة فيقبل عبدالرحمن طاعته ويثبته على ولايته، وهذه سياسة حكيمة من عبدالرحمن الأوسط لتقليل عدد المناوئين ما أمكن ومحاولة تجاوز المماحكة الداخلية إلى ما هو أجلُّ من ذلك، وتخطت بعض الحملات الإسلامية حدود الأندلس حتى وصلت جنوب فرنسا وجنوب إيطاليا لكنها لم تحتفظ بالأرض.

في أواخر عهد عبدالرحمن الأوسط أخذت الدسائس تشتد ضراوة لإشعال الفتنة بين المسلمين وأهل الذمة مدَّعين أنَّ المسلمين لم ينصفوهم في مظالمهم وأنَّ المسلمين يحتفظون بامتيازات خاصة؛ ليظل النصارى خاضعين لهم، وأنَّهم كانوا يتدخلون في إسناد وظائف الأساقفة لمن يجيد الملق والتزلف بغض النظر عن الكفاءة الدينية، كما لاموا على الأمير عبدالرحمن الأوسط حياة البذخ والإسراف التي كان ينعم بها.

والحقيقة أن أهل الذمة من نصارى أو يهود كانوا يتمتعون بحقوقهم شأنهم شأن غيرهم، أما الممارسات الفردية الخاطئة من العامة أو الخاصة فيمكنها النيل من أهل الذمة والمسلمين على حد سواء، ذكر الأديب التاميرا: «اتبع الأمراء المسلمون سياسة التسامح الديني عند الفتح، وكان أشراف العرب يحترمون النصارى، لكنَّهم لم يستطيعوا منع الدهماء في أوقات الحماسة المغرقة من إهانة القساوسة عندما يسيرون في الشوارع فرادى أو في مواكبهم، وكانت هذه الحوادث ومثيلاتها تثير حفيظة النصارى، وأدى ذلك بمرور الزمن إلى حقد الورعين لا سيما القساوسة، وحاولوا أن يحدثوا ثورات عن طريق الاستشهاد من خلال الطعن في النبي محمد ﷺ لأن القانون يعاقب عليه بالموت، وعلم الأمير عبدالرحمن بما يرمي إليه هؤلاء القساوسة فما كان منه إلا أن لجأ إلى

تشكيل مجلس من الأساقفة يرأسه أحد المطارنة، ومَثَّلَ الأمير عبدالرحمن فيه أحد كتابه المقربين منه، وهو جونت بن أطونيان بن خوليان عامل أهل الذمة، ولم يعترض المجلس على مبدأ الاستشهاد وإنما أصدر قراراً باستهجان مسلك المتطرفين، ومن أولئك سيدة ذات جمال أخَّاذ ابنة أحد المسلمين من أم نصرانية، اعتنقت النصرانية واسمها «فلورا» وأصرت على نصرانيتها، مفيدة أنها نصرانية منذ صباها، وأنها ليست مرتدة، غير أنَّ الحكم صدر بقتلها بعد منحها مدة كافية للمراجعة».

في عهد عبدالرحمن الأوسط أصبح للأندلس تواصل مع العالم الخارجي كما أسلفنا، فكانت هناك سفارات عديدة، فأرسل قيصر القسطنطينية أحد رجالاته إلى الأمير عبدالرحمن الأوسط يذكره بالعلاقات الجيدة بين أجداده من بني أمية في المشرق وبين البيزنطيين ويشكو إليه أفعال الأسلاف، من بني العباس المأمون والمعتصم ويسميهم باسم أمهاتهم تحقيراً، فيقول: ابن مراجل وابن ماردة، ويحثه على استرجاع حكم أجداده في المشرق.

فرد عليه عبدالرحمن بإرسال سفيره الشاعر الأديب «يحيى الغزال» ومعه «يحيى بن حبيب»، وكان يحيى الغزال قد جاوز الستين لكنه مازال يحتفظ بالكثير من أناقته وبهائه وظرفه، فوصلا إلى قيصر وقدما له الكتاب الهدية، وأعجب يحيى الغزال بزوجة قيصر وابنه ميخائيل الذي أصبح قيصراً فيما بعد فقال قصيدة منها:

وأغيد لين الأطراف رخص ... كحيل الطرف ذو عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه ... يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبناء الغضارفِ قيصري ... العمومة حين ينسب والخؤول

كما أنَّ الأمير عبدالرحمن الأوسط أوفد يحيى الغزال إلى بلاد النورمانديين مع وفد كبير فقوبلوا أحسن استقبال، وشغف يحيى الغزال بإحدى النساء فقال فيها شعراً ظريفاً وعاد إلى قرطبة بعد مضي عشرين عاماً.

لقد كان عهد عبدالرحمن الأوسط عهد رخاء وأدب وعلم وثقافة، برز فيه عدد غير قليل من الفقهاء والعلماء والفلكيين والموسيقيين، فمن الفقهاء عيسى بن دينار، ويحيى بن يحيى، وعبدالأعلى بن وهب، ويحيى بن مدين، وبقي بن مخلد، ومن الموالي،

نصر أبو الفتوح الذي حارب النورمانديين «المجوس» «الفايكنج» وهزمهم شرَّ هزيمة وكان مدبراً شديد البأس يخشاه الناس كبيرهم وصغيرهم، خاصتهم وعامتهم، وكان يستمد قوته وحظوته لدى الأمير عبدالرحمن من علاقته المميزة والمتينة مع طروب جارية عبدالرحمن الأثيرة لديه.

ونصر هذا اشتهر بالجمال والظرف وهو من أبناء الأحرار الذين تم خصيُهم في عصر الحكَم واستخدامهم في القصر وكان أبوه من المولدين.

وقرَّبَ عبدالرحمن الأوسط عدداً من الفلكيين والشعراء مثل عباس بن فرناس، ويحيى الغزال الشاعر والأديب والسفير، والشاعر عبدالله بن الشمر بن تمير، وكان منجماً يلجأ إليه عبدالرحمن الأوسط لقراءة طالعه، وما أحسبه على ذلك قديرا، فالعلم عند الله، لكنَّ عبدالرحمن الأوسط كان شغوفاً بالتنجيم والفلك وعلى دراية كبيرة بهذا العلم، شأنه شأن أجداده. ووفد إليه «زرياب» الموسيقي المشهور بعد أن أبعده أستاذه «إسحاق الموصلي» خوفاً من منافسته له عند الخليفة هارون الرشيد، فَقَدِمَ إليه فرفع منزلته وأعلى مكانته لموافقته حب الأمير عبدالرحمن للموسيقى وشغفه بها، فذاع صيته وظلت أناشيده وأهازيجه تردد حتى هذا اليوم، كما أخذ عنه الأندلسيون أناقته في الملبس وأسلوب معيشته.

وحياة عبدالرحمن الخاصة كانت مليئة بالبذخ والسرف والموسيقى والنساء، لكن ذلك لم يثنه عن الحكم وطلب المعالي مبقياً أثر ذلك محصوراً في نطاق الأمور المحيطة بالقصر ولم تصل إلى الأمور ذات العلاقة بالقرارات المصيرية وإن كانت تمس في أحايين كثيرة بعض الرموز القيادية حول البلاط.

وقد أكثر عبدالرحمن من الجواري الحسان، وكان مشغوفاً بهنَّ يختارهنَّ لأصولِهنَّ وجمالهنَّ، وبرزت لديه منهنَّ عدد غير قليل كان على رأسِهنَّ «طروب» أم ولده عبدالله، و«مؤامرة» أم ولده المنذر، و«شفاء» أم ولده المطرِّف، وله من الولد أكثر من مائة وخمسين ومن البنات مثلهم.

وقصته مع طروب مشهورة قال المقري في ذلك: «وكان كثير الميل للنساء (يعني عبدالرحمن) وولع بجاريته طروب وكلف بها كلفاً شديداً، وهي التي بنى عليها الباب ببِدَر المال حين تجنَّت عليه، وأعطاها حليّاً قيمته مئة ألف دينار، فقيل له: إنَّ مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك، فقال: إنَّ لابسه أنفس خطراً، وأرفع قدراً وأكرم جوهراً، وأشرف عنصراً».

وفيها يقول:

إذا ما بدت لي شمس النهار طالعة ذكرتني طروبا
أنا ابن الميامين من غالب أشبُّ حروباً وأطفي حروبا

وساق بعض المؤرخين قصة طروب هذه بقوله: «إنَّ السلطان المذكور أغضبها فهجرته وصدَّت عنه وأبت أن تأتيه ولزمت مقصورتها، فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها وجهد أن يترضاها بكل وجه فأعياه ذلك، فأرسل من خصيانه من يكرهها على الوصول إليه، فأغلقت باب مجلسها في وجوههم وآلت ألاَّ تخرج إليهم طائعة ولو انتهى الأمر إلى القتل، فانصرفوا إليه وأعلموه بقولها واستأذنوه في كسر الباب عليها، فنهاهم وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببِدَرِ الدراهم ففعلوا، وبنوا عليها بالبِدَر، وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضياً راغباً في المراجعة على أنَّ لها جميع ما سُدَّ به الباب فأجابت وفتحت الباب، فانهالت البِدَر في بيتها، فأكبت على رجلِه تقبلها وحازت المال، وكانت تبرم الأمور مع نصر الخصي، فلا يرد شيئاً مما تبرمه».

ولقد تمالأت «طروب» و«نصر» على إبعاد «ابن شهيد» وزير الأمير عبدالرحمن من الوزارة، فوافقهم على ذلك مستغلين مرضه، وبعد أن برئ أعاده إلى سابق منزلته، ولا شك أنَّ نفوذ البلاط وتمتعه بالمميزات وخشية الناس سطوتهم سواء الفتيان أو النساء، كانت من مثالب عصر عبدالرحمن الأوسط.

وكاد يصل ذلك النفوذ من قبل نصر وطروب إلى تولية عبدالله بن عبدالرحمن بن طروب ولاية العهد دون أخيه محمد، لكنَّ عيسى بن شهيد الذي حاول إبعاده كانت له النصرة عليهم في إقناع الأمير عبدالرحمن بأنَّ محمداً أجدر بالإمارة من أخيه فتمَّ له ما أراد.

محمد بن عبدالرحمن الأوسط

تـولى محمـد بن عبدالرحمن الحكم عقب وفاة أبيه ولم يكـن أكبر أبناء عبدالرحمن سناً غير أن والده كان يُعده لحدث مثل هذا لا سيما أن لعبدالرحمن أكثر من مئة وخمسين ولداً ومثلها من البنات ومن أمهات مختلفات، وقد لعب الحاجب عيسى بن شهيد دوراً في تولية محمد لقطع الطريق على تنصـيب أخيه عبدالله ابـن الجارية الحظية لدى الأمير عبدالرحمن وبسعي من نصر الخصي المالئ لها.

وقد كان لمحمد عيون داخل القصر وكان «حبيب الخصي» عين محمد الموثوقة، فعندما توفي الأمير عبدالرحمن سارع حبيب بإرسال مرسوله إلى محمد يستحثه على المجيء فجاء محمد مسـرعاً إلى القصر وقد أخفى سلاحه بين ملابسه؛ خشية دسائس أخيه عبدالله، وكان الصـقالبة وموالي القصر النافذين قد أغلقوا أبواب القصر ووقعت بينهم مداولات حـادة انتهت بالاتفـاق على تولية محمد، وتم اسـتدعاء إخوته وأهل بيتـه وكبار القيادات وأخذت البيعة لمحمد، ومن ثم تمت البيعة من الشعب في المسجد في أيام متوالية.

قبـل أن ندلـج في الحديث عن الأمير محمد بن عبدالرحمن الأوسـط يمكننا أن نقف هنيهة عند تَرِكَة الأمير عبدالرحمن الأوسـط السياسـية لابنه، فقد ترك بلاداً مترامية الأطـراف، مسـتقرة، مهيبة الجانب، ثرية، ذاع صـيتها في الآفاق، غير أنَّ التركة أيضـا تحوي نفوذ الصـقالبة والجواري في القصـر وخارجه، ونمطاً باذخا في المعيشة والقصور والخيول وغيرها، وعدداً من الأبناء والجواري المتنافسين، ووهج رماد، ووميض نار، تختبئ تحتها دسائس أعدائه النصارى المتربصين بدولته المستغلين للتباين الإثني والطائفي.

وكان الأمـير محمد أميراً ذكياً فطناً بالأمور، كمـا قال ابن حيان وقال عنه الحميدي صـاحب «جذوة المقتبس»: إنَّ أمه أم ولد اسمها «تهتز»، وكان للعلوم مؤثراً ولأهل الحديث عارفاً، حسن السيرة، وكذلك قال عنه الضَّبي في البغية.

اسـتمر في الاسـتفادة من خدمات الحجاب والوزراء الذين كانـوا في عهد أبيه فأبقى على عيسى بن شهيد، وبعد وفاته خلفه «عيسى بن الحسن بن أبي عبدة» ونافسه في ذلك

هاشم بن عبدالعزيز وكان أقرب إلى قلب محمد من ابن أبي عبدة، وقد نقل لنا ابن عبدالبر أنَّ هاشما قد أفسد على الأمير أمره: «فشرهه، وصلفه، وحمله على المنهج من محمود أمره، وعدل عن اختيار ثقات العمال من الشيوخ والكهول أولى النهي والأصول إلى الأحداث من أولي الشر والخيانة ودناءة الأصول، فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك إلى أبعد حال، فنجحت الفتنة بأكثر البلاد، وكثر في الأرض الفساد».

والواقع أنَّ الأمير محمدًا لم يكن بذلك السوء وإن كانت به خلال تختلف عن أبيه حسنها وسيئها، فقد كان صلفاً حاداً، قرَّب إليه أهل الشام من الوزراء على حساب المولدين، غير أنَّه كان أقل بذخاً من أبيه ونأى بنفسه عن نفوذ الجواري وحشم القصر كما أنَّه حدَّ من الدسائس والمماحكات التي تحدث داخل القصر.

ومن سوء طالع الأمير محمد أنَّ الدسائس والمكائد الخارجية وليست الداخلية -كما كانت في عصر الأندلس الأول- أخذت طابع التخطيط والتنظيم، ولهذا فقد أمضى جُلَّ حكمه الذي بلغ خمسة وثلاثين عاماً في القضاء على الثورات الداخلية فاستعاض أعداؤه بأعوان السوء لتجنب خيل الأمير محمد وسيفه.

قال ابن حيان واصفاً تلك الحال: «والمشوب آخره بالتنكيد، المنصرم عن فرقة الجماعة، ونجوم النفاق بكل جهة»، وحسبي أن أقول: إنَّ أفول نجوم الدول تتم عبر سطوع نجوم النفاق.

ثارت سيدة الثورات طليطلة مرة أخرى منتهزة وفاة عبدالرحمن الأوسط، وكان زعيم الثورة «سوقة بن مطرف» وهو أحد الفارين من قرطبة، وقد استطاعوا هزيمة جند الأمير وأسروا عاملها وأرغموا الأمير محمداً على مبادلته بأسرى لديه منذ زمن أبيه فكان لهم ما أرادوا.

أحسَّ الأمير محمد بخطر طليطلة فسار بنفسه في أول تحرك له بعد تنصيبه، عازماً على إخضاعها، واستشعر الثوار الخطر، وكان أغلبهم من النصارى والمولدين المدعومين من الخارج، فاستنجدوا بملك ليون وملك نافار، فكان تدخل النصارى بهذه القوة قد أذكى حماس المسلمين لنصرة إخوانهم فانضموا إلى جيش الأمير محمد، وأخفى جزءاً كبيرا من جيشه خلف التلال وتقدم بعدد يسير من الجند، فظن الأعداء أنهم منتصرون

لا محالة، فما لبثوا أن باغتهم الجيش فمزقهم شرَّ ممزق، وقد قتل منهم نحو عشرين ألفاً وقتل عدد كبير من القساوسة وأعدموا، ورصت رؤوس القتلى وأُذِّنَ فوقها لصلاة الظهر، وربما أنَّ قسوة الأمير محمد قد جعلت المدينة تضطرم بنار الفتنة متحينة فرصة متاحة.

وسار «موسى بن موسى» بجيش إلى الشمال فأخضع كثيراً من البلاد التي كانت بيد النصارى، وموسى بن موسى هو ذلك الثائر فيما سلف على عبد الرحمن والمتحالف مع النصارى بسبب جور ولاة عبد الرحمن عبد الله وعامر عليه، والعائد إلى الطاعة بعد هزيمته.

لم يأمن الأمير محمد غائلة طليطلة فسار إلى المدينة وحاصرها وقتل الكثير من أهلها وخرَّب أسوارها وهدم حصونها وقتل رئيس الفتنة والمحرض عليها القس الوخيو ومساعدته السيدة ليوكزيسيا، فطلب أهل طليطلة الأمان وخضعوا للطاعة.

عاد المجوس «النورمانديون» للظهور مرة أخرى على الشواطىء الأندلسية محاولين جمع ما يمكن جمعه من الغنائم والسبايا بعد التخريب والترهيب فكانت لهم الجيوش البحرية والبرية الأندلسية بالمرصاد، غير أنَّ تكاثر سفن المجوس «النورمانديين» أجبر البحرية على الانكسار، فسار المجوس «النورمانديون» إلى عدوة المغرب فنهبوا، ثم عادوا إلى الأندلس فكانت حرباً أخرى انهزم فيها «النورمانديون» فعادوا صوب الشمال ودخلوا بافار وأسروا ملكها ثم أطلقوه؛ لقاء فدية كبيرة.

بعد أن أطلق المجوس «النورمانديون» ملك بافار غريسة تحالف مع ملك ليون وحاولوا مهاجمة المسلمين فانهزموا وخرَّب المسلمون حصونهم وأُخِذَ فرنوند ابن غرسية أسيراً، وظل كذلك في قرطبة مدة عشرين عاماً.

وقامت معركة أخرى بين موسى بن موسى وصهره وحليفه غرسية من جهة وبين ملك ليون من جهة أخرى، هزم فيها موسى وقتل صهره غرسيه وعدد كبير المسلمين، كما جرح موسى بن موسى جروحاً غائرة أدت إلى وفاته فيما بعد.

بعد موت موسى لم يكن ابنه إلب ذكياً مثل أبيه، فتحالف مع ملك ليون، فسار إليهم جيش الأمير محمد، وتوفي إلب على إثر إصابته، وكان الأمير محمد قد استبدل بأبناء

موسى حكاما، من قبله؛ خشية انفرادهم بالسلطة كما يفعل أبوهم، إلاَّ أن اختياره لم يكن موفقاً، وربما يثبت ذلك ما قاله ابن عبدالبر فيما سبق.

ولجأ أبناء موسى إلى ملك ليون متحينين فرصة للانقضاض عندما تحين. حانت الفرصة لأبناء موسى بن موسى، إسماعيل ومطرف للسيطرة على بعض مدن الشمال بسبب عدم جدارة الولاة الذين اختارهم الأمير محمد، وربما باستشارة هشام ابن عبدالعزيز وزيره وقائد جيشه، وهو أحد المولدين الشجعان مع صلافة وخشونة في التعامل، وقد استطاعوا نيل مرادهم بالاستيلاء على تطيلة وسرقسطة، فسارع الأمير محمد بالخروج إلى الثغر الشمالي، واستولى على تطيلة وقبض على مطرف وبنتيه، وعندما عاد إلى قرطبة أمر بقتل مطرف وبنتيه، وعلقت رؤوسهم على باب القصر، وعاد فرتون الابن الثالث لموسى فاستولى على تطلية.

عزم الأمير محمد على سحق التمرد في الثغر الشمالي، فأرسل جيشه إلى هناك، وانضم إليه محمد بن إلب بن موسى بن موسى الذي كان على خلاف مع عمه إسماعيل لاستئثاره بالسلطة، وطلب إسماعيل الأمان فأَمّنه الأمير محمد وأبقاه، وما إن رحل الأمير محمد وحلَّ بقرطبة حتى دبَّ الخلاف بين محمد بن إلب بن موسى وعمِّه إسماعيل بن موسى، فانتصر محمد بن لب وحكم سرقسطة بموافقة الأمير محمد، ثم بدا للأمير محمد انتزاع الولاية منه، فتحالف لب مع الفنسو، فسير الأمير محمد الجيش مرة أخرى إلى الشمال فأخضع محمد بن لب بن موسى واتفق على هدنة مع الفنسو، وكان من بين قيادات الجيش عمر بن حفصون الذي ثار على الأمير محمد فيما بعد، مما يدلُّ على سوء اختيار الأمير محمد لبعض الولاة وبما يتفق مع ما قاله ابن عبدالبر.

مرة أخرى يكون سوء التصرف أو الصلف مدعاة للفتن والمشكلات فقد تلاحى القائد هاشم بن عبدالعزيز مع عبدالرحمن الخليقي وأهانه وصفعه، فتحين عبدالرحمن الفرصة وهرب من قرطبة متخفِّياً مع جمع من أنصاره، وتوافد عليه عدد قليل من المناوئين منهم مكحول بن عمر، وانضم إليه سعدون بن عامر من زعماء المولدين، وبعد حصار شديد من قبل جيش الأمير محمد لهم استجار عبدالرحمن بعبدالله ابن الأمير

محمد فألَّح على أبيه بالقبول، فوافق بشرط ذهابه إلى بطليموس ورهن بعض أبنائه وأنصاره، ففعل.

غير أنه تحصن في بطليموس واستعان بأحد أعوانه يقال له سعدون، وكان المدد يأتيهم من ملك ليون، وهُزِمَ جيش هاشم بن عبدالعزيز وأسر، ثم افتداه الأمير محمد بعد عامين، ولجأ عبدالرحمن بن مروان وسعدون إلى ملك ليون، ثم غادر عبدالرحمن ليون مغاضباً وتحصن في بطليموس، وحاول الأمير محمد القضاء عليه فلم يتمكن، فنزل على شروطه وأبقاه وهي بداية التنازلات.

ظهر اسم جديد كان له شأن فيما بعد هو ذو النون بن سليمان الهواري، مرَّ به الأمير محمد ذات يوم وقد مرض له خصي مقرب لديه، فاعتنى به ذو النون، وعندما برئ جاء به إلى الأمير محمد في قرطبة، فكافأه الأمير محمد بتوليته طليطلة، وظل طيلة عمره موالياً للإمارة في قرطبة، وخلفه ابنه موسى فراودته نفسه على الخروج ففعل، ولما توفي سار ولده مظفر على سيرته، وكانوا من زعماء الفتنة في عصر الطوائف.

في الجنوب ظهر عمر بن حفصون وكان من أعظم ثوار الأندلس وأشدَّهم بأساً، وكان عمر من المولدين سليل أسرة نصرانية، وكان أبوه ذا مال وجاه قال عنه ابن حيان، وهو يذكر الخوارج: «إمامهم وقدوتهم عمر بن حفصون، أعلاهم ذكراً في الباطل، وأضخمهم بصيرة في الخلاف، وأشدهم سلطانا، وأعظمهم كيداً، وأبعدهم قوة».

وربما تكون صلافة وظلم وعنف يحيى بن عبدالله بن يحيى عامل الأمير هناك سبباً في قيام الناس عليه.

وبهذا يظهر لنا مرة أخرى مأساة صنعها الولاة، وربما يمكننا القول: إنَّ الأمير محمد قد صنعها بالاختيار غير الجيد للولاة.

أرسل الأمير محمد ابنه المنذر مع وزيره هاشم بن عبدالعزيز لقتال ابن حفصون، فظل محاصراً له مدة شهرين حتى نزل ابن حفصون من حصنه وأخذ في قتال جيش الأمير محمد، ثم فرَّ مرة أخرى إلى الحصن، وقد جرح جرَّاء المعارك وكاد أن ينزل

لحكم الأمير محمد، فجاء الخبر إلى المنذر بوفاة أبيه، فهرع مسرعاً إلى قرطبه تاركا ابن حفصون الذي سارع في الاستيلاء على ما حوله وتحصين نفسه.

كان عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن الأوسط الذي دام نحو خمسة وثلاثين عاماً، مليئاً بالمآسي والحروب والثورات والفتن والصراع المرير والدسائس والمكائد، فكان مأساة تضم إلى مآسي الأندلس الكبرى.

لم يكن الأمير محمد جباناً بل كان شجاعاً مغواراً، لم يركن إلى الراحة ولم يخش القتال، لكن كان حظه غير جيد في التوقيت الذي تولى فيه الحكم، فقد قويت شوكة أعدائه من النصارى، وأظهروا تغيراً واضحاً في الإستراتيجية بالركون إلى الدسائس والمكائد وإثارات النعرات، ومن ثم الاقتتال الداخلي، وكان التغير واضحاً في أسباب مآسي الأندلس في عصر الأمير محمد، فلم تعد الأطماع الشخصية أو الخلافات داخل البيت الأموي سبباً في المآسي، وإنما الأمر أكبر من ذلك فهو تأليب من قوة خارجية.

ولقد ساعد على انتشار هذا السم الزعاف إخفاق الأمير محمد في اختيار الولاة، وكذلك عدم انتهاج الحكمة التي تستوجب اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، ومن شواهد ذلك ما ذكره ابن القوطية من أنه حدثت مجاعة سنة مئتين وستين، ووليد بن غانم كان واليا على قرطبة، وكانت سنة لم تزرع فيها الأندلس حبة، فاستدعى الأمير محمد واليه وقال له: «العشور، ما ترى فيها؟ قال: إنما يؤخذ العشور بسبب الزراعة، ولم تزرع رعيتك، فأنفق من مخازنك وبيوت أموالك، فلعل الله أن يأتي في العام المستقبل بخير، فبهره قوله، فقال له: لا والله، لا تَقلَّدتُ تحريك حبة واحدة منه».

ويبدو أن بعض المنافقين ممن حول الأمير أشاروا عليه بعدم المساس بما في مخازن القصر، ويمكن أن يجدوا من الأعذار والأسباب ما يوافق هوى الأمير محمد برغم فساد الرأي، ومكمن الفرق بين الصواب والخطأ يقع في التفريق بين تغليب الهوى والمصلحة، أيهما ينتصر.

واتصل الخبر بالناس وما دار فيه، فرفع حمدون بن بسيل المعروف بالأشهب، وكان من الطغاة البغاة، فسأل ولاية المدينة على أن يضمنوا إيراد العشور برغم أنوفهم، حتى

هتك الستور، وضرب الظهور، وقتل الأنفس بالتعليق، ففر الناس إلى الله -عز وجل- منه، فأماته الله بغتة.

قال ابن القوطية: «فاتصل الخبر بمحمد وما نال الناس منه، فأوصل إلى نفسه وليد ابن غانم، واعتذر إليه، وسأله أن يرجع إلى المدينة، ليصل ما أخذ الميت قبله، فقال: أما، وقد صرت عندك في محل من بيده حمدون بن البسيل أو مثله، كلا والله لا آخذ مثله في المدينة أبدا، فوَلَّى غيره».

فكانت ثلة المنافقين وبالاً على الأمير محمد بن عبدالرحمن، حتى تجرأ الصالحون على رفض الولاية له.

وقد انطبق على الأمير محمد قول الشاعر:

وماكنت أرضى من زماني ما ترى ولكنني راضٍ بما حكم الدهر
فإن كانت الأيام خانت عهودها فإني بها راضٍ ولكنها قهر

obeikandl.com

مدينة طلة التي استطاع محمد بن عبدالرحمن الأوسط
إخضاعها بعد أن ثار سكانها عليه بمساعدة ملك ليون وملك نافار.

المنذر بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط

كان المنذر محل ثقة أبيه وكثيراً ما أرسله على رأس جيوشه مع هاشم بن عبدالعزيز لمحاربة الخارجين على حكم بني أمية وعاصمتهم قرطبة، وهو ليس أكبر أبناء الأمير محمد البالغ عددهم ثلاثة وثلاثين ذكراً وإحدى وعشرين بنتا، ولكنه كان محل ثقته، وربما يكون للنساء دور في ذلك.

علم المنذر بوفاة أبيه عندما كان محاصراً لابن حفصون، فعاد إلى قرطبه للتربع على كرسي حكم بني أمية في الأندلس.

والمنذر كان رجلاً عاقلاً شجاعاً امتد حكمه قرابة عامين، وأمه أم ولد يقال لها «أثل». أبقى وزير والده هاشم بن عبدالعزيز على مكانته بادىء الأمر، وقد بلغ هاشم بن عبدالعزيز من النفوذ والسطوة والمال ما جعله نافذ الكلمة مطاعاً، والأمير المنذر أكثر الناس معرفة بغاياته وطباعه وقدراته الحربية؛ نظراً لمرافقته في جُلّ غزواته.

تولى الأمير المنذر الأمور والفتنة على أشدها وكان بين ناظريه ذلك الثائر في الجنوب ابن حفصون الذي منعته وفاة والده من الإجهاز عليه، ورأى الأمير المنذر أنَّ من الأجدر إصلاح ما تحت يده قبل الشخوص إلى خارج القصر.

وكثر الحديث عن هاشم بن عبدالعزيز وصلفه وطغيانه واستئثاره بالمال والجاه، فوافق ذلك هوى في نفسه لمعرفته بحاجب أبيه، فبعد يومين من توليه، أمر بالقبض على هاشم وأولاده وصحبه وأودعه السجن ثم قتله وأبقى على أولاده في السجن حتى أطلقهم أخوه الأمير عبدالله، وأعاد لهم أموالهم بعد وفاة المنذر.

قال هاشم وهو في السجن شعراً منه:

سأرضى بحكم الله فيما ينوبني ... وما من قضاء الله للمرء مهرب
فمن يَكُ أمسى شامتاً بي فإنه ... سينهل في كأسي وشيكاً ويشرب

وبدأ حربه بمحاولة إخماد رأس الفتنة طليطلة فقتل من الثوار ما قتل وعاد، ثم غزا محمد بن لب بن موسى بن موسى في الثغر الأعلى ورجع بعد إخضاعه.

وبعد أن اطمأن إلى إسكات طليطلة والثغر الأعلى، خلص إلى أنَّ الوقت قد حان لمنازلة غريمه ابن حفصون، فسار إليه عازماً ألاَّ يعود دون القضاء عليه مبتدئاً بمحاصرة أحد أعوانه يقال له عيشون، ثم قتله وأرسله إلى قرطبة، وصلبه وصلب معه خنزيراً وكلباً إمعاناً في إذلاله.

وبقي ثلاثة وأربعين يوماً محاصراً لابن حفصون وكاد أن يقع في يده غير أنه لجأ إلى الحيلة، فأعطاه الأمير المنذر الأمان وزوده بالمؤن فعاد إلى التحصين والنكوص.

وظل المنذر محاصراً له حتى كاد يستسلم، فأراد الله أن ينقذ ابن حفصون مرة أخرى حيث مرض المنذر ومات ليكون موت الأمير محمد ومن بعده الأمير المنذر سبيلاً لنجاة ابن حفصون.

اختلفت الروايات في سبب مرض المنذر وموته، فهناك من المؤرخين من يزعم أنَّ الأمير المنذر قتل بتدبير سيئ من أخيه عبدالله الذي كان يطمع في الحكم، وأنه قد أوعز إلى طبيب المنذر أن يسُمَّه في أثناء حجامته ففعل، وقد يكون الزعم حقاً لما لعبدالله من خصال تتسم بالقسوة والجبروت، كما يرى ابن حزم.

ومهما كان السبب فالموت واحد، المهم أنَّ الأمير المنذر لم يخلف أحداً لخلافته في الحكم من عقبه.

مأساة الأندلس في عهد الأمير المنذر تكمن في عدم قدرته على إخماد الثورة لقِصَر مدة حكمه، وكذا استمرار انتشار دعوة ابن حفصون (وهو من المولدين) الداعية إلى التخلص من العرب والبربر وعلى رأسهم بنو أمية للحصول على مزيد من الحرية كما يزعم والتخلص من ظلم الحكام في قرطبة.

فهذه الدعوة نقلت الأندلس من دسائس النصارى في الشمال ومكائدهم من خلال العصبية والفتن إلى خطوة متقدمة، تجلت في اعتبار العرب والبربر محتلين يجب التخلص منهم وترك الأندلس للمولدين (أهل الأندلس الذين دخلوا الإسلام) وأهل الذمة من النصارى، وهي نقلة نوعية في الإستراتيجية المتبعة للإجهاز على الوجود الإسلامي في الأندلس الذي يخشاه النصارى في الشمال.

الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط

تولى الحكم بعد وفاة أخيه أو ربما بعد قتله لأخيه بالسم كما يزعم ابن حزم، وأمه أم ولد يقال لها «عشار» أو «أشار» وقال آخرون: إنَّ اسمها «بهار»، والأمير عبدالله شخصية غير مفهومة، ويحق لنا أن نقول: إنه متناقض، فالأمير لا يحب البذخ والإسراف ولا يشرب الخمر وينأى بمجالسه عن الرذائل، ولذا تعد مجالسه من أنزه مجالس حكام بني أمية في الأندلس ويكاد لايبزه في ذلك سوى أخيه المنذر ومن قبله جده هشام، وكان يلجأ إلى العلماء والعقلاء لأخذ المشورة، ويحف بمجلسه ثلة من الأدباء والشعراء والكتاب، مثل عبدالملك بن جهور العالم والأديب الذي سيكون لعائلته شأن كبير في تاريخ الأندلس، وابن عبد ربه الكاتب والشاعر المشهور صاحب كتاب العقد الفريد، وموسى بن حُدير المعروف بالورع والزهد، وكذلك الفقيه بقي بن مخلد فقيه عصره.

وكان فصيحاً أديباً شاعراً له توقيعات بليغة، قال عنه ابن حيان: «كان متصرفاً في الفنون، متحققاً منها بلسان العرب، بصيراً بلغاتها وأيامها، حافظاً للغريب من الأخبار، آخذاً من الشعر بحظ وافر»، قال في الزهد:

يا من يراوغه الأجل ... حتَّامَ يلهيك الأمل
حتَّامَ لا تخشى الردى ... وكأنه بك قد نزل
أغفلت عن طلب النجاة ... ولا نجاة لمن غفل

ويقول عنه الرواة: إنه من أصلح خلفاء بني أمية، وأمثلهم طريقة، وأتمهم معرفة.

ومع هذا الجانب المضيء من شخصيته، تظهر لنا شخصية أخرى نقيضة، فقد حدث في عصره وعلى يده وقائع مؤلمة داخل البيت الأموي كانت منافية لتلك السجايا الحميدة التي مارسها خلال عمره المديد.

فقد اتهم بقتل أخيه المنذر بالسم طمعاً في الخلافة، كما كان هناك صراع بين محمد والمطرف أبناء الأمير عبدالله لمنافسة بينهما، حيث يرى المطرف أنه أحق بولاية العهد من أخيه الأكبر محمد لكونه محل ثقة أبيه وعضده الذي يذود عنه ويعهد إليه قيادة

الجيوش والمنافحة عن البيت الأموي، ودأب المطرف على السعاية ضد أخيه محمد لدى أبيه ولم يهن عزمه عن ذلك حتى أوغر صدر أبيه، ويقول ابن خلدون: إنَّ محمداً لحق حينئذٍ بابن حفصون ثم طلب الأمان فعاد.

وهناك من يقول: إنه همَّ ولم يفعل، أو أنَّ المطرف استطاع إقناع أبيه بأن أخاه محمداً ولي العهد كان يتواصل مع ابن حفصون، فغضب عليه أبوه وسجنه في إحدى غرف القصر، وعندما ثبت لدى الأمير عبدالله براءة ابنه محمد وعزم على إخلاء سبيله بادر المطرف بالدخول على أخيه وإثخانه بالطعن حتى أجهز عليه.

أما ابن خلدون، فيقول: إنَّ الأمير محمداً عندما خرج في بعض غزواته، واستخلف ابنه المطرف على قصره قتل أخاه في محبسه مقتاتاً بذلك على أبيه، فحزن الأمير عبدالله على محمد، وضم ابنه عبدالرحمن إليه، وهو ابن يوم واحد.

أما ابن الأثير فيذكر أنَّ الأمير عبدالله قتل ولده محمداً في حد من الحدود، وكان عمر محمد عند قتله سبعة وعشرين عاماً.

بعث الأمير عبدالله ابنه مطرفاً لقتال بعض الخارجين عليه، وأرسل معه وزيره عبدالملك بن أمية، ففتك المطرف بالوزير لعداوة كانت بينهما، وبعد العودة من الصائفة ومحاربة الخارجين سعى أعداء المطرف عند أبيه وأوغروا صدره عليه، واتهموه بالطموح لنيل الحكم بعد التخلص من أبيه، فقتل الأمير عبدالله ابنه المطرف واجتز رأسه.

وعَيَّن الأمير عبدالله أمية بن عبدالملك بن أمية ابن وزيره السابق المقتول وزيراً بدلاً من أبيه، ويقول ابن خلدون: «فسنح على الفقراء بأنفه، وترفع على الوزراء، فمقتوه وسعوا فيه عند الأمير عبدالله بأنه بايع جماعة من سماسرة الشر لأخيه هشام بن محمد، ولفقت بذلك شهادة اعتمد القاضي حينئذٍ قبولها وأشار للساعين في أن يجعلوا في الجماعة للمشهود عليهم بالبيعة بعض أعدائه فتمت الحيلة، وقتلَ الأميرُ عبدالله أخاه هشام بن محمد، كما قتل أمية بن عبدالملك بن أمية الوزير بن الوزير وعددا ممن يرغب الأمير قتلهم».

كما أنَّ الأمير عبدالله ارتاب من أخيه القاسم، فقبض عليه وزج به في السجن ثم دسَّ عليه من قتله بالسم.

كما أنه قتل عدداً من أمراء بني أمية وكبار القادة الذين يتوجس منهم خيفة، ولهذا فقد قال عنه بعض المؤرخين: إنه قتَّال تهون عليه الدماء، مع الذي كان يظهره من عفته.

وقال آخر: وغمصوا عليه دينه بما كان من هون الدماء عليه، وإسراعه إلى سفكها حتى من ولديه وإخوته ومن خلفهما من صحابته ورعيته، آخذاً لأكثرهم بالظنة، مقوياً في اتهامهم بالشبهة.

شخصية تتسم بهذه الصفات الحميدة من غير المتوقع أن تهون عليها الدماء، لكنه الإنسان ذلك المزيج من المحاسن والمساوىء، ويكون منها بدرجات متفاوتة، فلا تخامرنا الدهشة في شخصية الأمير عبدالله، فالتاريخ أورد لنا في صفحاته الكثيرة العديد من الرجال الذين ماثلوا الأمير عبدالله في تناقض عجيب.

وقد امتد عهد الأمير عبدالله نحو خمسة وعشرين عاماً، وطال عمره حتى جاوز السبعين، كما طال عمر أمه فماتت قبل موته بنحو سنة فقط.

واجه في عهده المديد الكثير من الفتن والثورات والقلاقل، فلم يهنأ براحة قط عبر هذه السنين الطويلة، كما لم تتح له هذه المنغصات من الوقت والجهد والمال ما يمكن أن يبني به مسجداً أو يشق جدولاً أو يشيد قصراً، فذهب ربع قرن من عمر الأندلس في عهد الأمير عبدالله دون بناء أو تشييد، وإنما فتن، وقتل، وخيانة، وغدر، وتفتيت، ومكائد، ودسائس، ودعوات ضلال.

بدأت الفتن المبنية على الدسائس الخارجية في عهد عبدالرحمن الأوسط ومن ثم ابنه محمد ومن بعده ابنه المنذر، لتصبح الأندلس أقرب إلى السقوط من خلال التفتيت.

كانت الفتن منحصرة فيما مضى في الجبال وبعض المدن، وفي عهد الأمير عبدالله نزلت إلى العديد من المدن إضافة إلى الجبال، وكانت فتن المولدين مثل ابن حفصون وأبناء موسى بن موسى القسي وغيرهم هي أكثر الفتن خطراً على البيت الأموي في الأندلس، غير أنَّ الأمر تجاوز المولدين في عهد الأمير عبدالله، حتى بدأت القبائل العربية تدلي بدلائها؛ لتروي ظمأها للسلطة والجاه والمال.

ولم يقف البربر بمنأى عما أقدم عليه المولدون والعرب فانضموا إلى قافلة الاستزادة من لذة الحكم.

كان ابن حفصون قد كوَّن له منعة فيما تحت يده من أرض الأندلس لا سيما الجنوب فيها، فأرسل إليه الأمير عبدالله جيشاً، فأراد ابن حفصون المهادنة فأرسل أحد أبنائه، ويقال له حفص، للتفاوض مع الأمير، فوافق الأمير وردهم رداً جميلاً، وبعث معهم والياً من قبله؛ ليشارك ابن حفصون في الأمر على أن يلتزم الطاعة، لكنَّ ابن حفصون عاد إلى سيرته الأولى، فطرد الوالي، واستقل بالأمر، وأخذ في التوسع، كما أرسل إلى والي أفريقية ودعا إلى العباسيين لعله ينال دعمهم فتكون له الطائلة في الأندلس، وأرسل الأمير عبدالله قائده عبيد الله بن أبي عبدة الذي استطاع هزيمته دون القضاء عليه.

وفي هذه الأثناء أخذت الثورات العربية تندلع في الشرق الأندلسي، ليقوم يحيى بن صقالة القيسي بثورته العربية مستفيداً من ماله الكثير، ونفوذه الكبير، في استمالة العديد من القبائل العربية لإعانته على بلوغ مرامه، واستطاع في بادىء الأمر السيطرة على كثير من نواحي شرق الأندلس، لكنه ما لبث أن قُتل، ليحل محله سوار بن حمدون القيسي، واستمر في الصراع مع المولدين وعلى رأسهم ابن حفصون، ثم مالبث أن قتل سوار فخلفه في قيادة القبائل العربية سعيد بن سليمان السعدي من قبيلة هوازن الذي استطاع مقارعة ابن حفصون، فأقرَّه الأمير عبدالله على ما تحت يده، ويقال: إنه قتل غيلة بتدبير من الأمير عبدالله.

وفي إشبيلية ثار ابن أبي عبيد وابن خلدون - وهو من أجداد ابن خلدون صاحب المقدمة - وابن حجار وابن مسلمة.

قال ابن خلدون: «وكان أول هؤلاء أمية بن عبدالله بن أبي عبيد، واستبد أمية بولايتها ودس على عبدالله بن الحجاج من قتله فقام أخوه إبراهيم مكانه، فثاروا به وحاصروه في القصر، ولما أحيط به خرج إليهم مستميتاً بعد أن قتل أهله، وأتلف موجوده، فقتل وعاثت العامة برأسه، وكتب ابن خلدون وأصحابه بذلك إلى الأمير عبدالله».

وكان هناك صراع على السلطة تنازعه أكثر من بيت من بيوت العرب، واستمر الغدر والقتل إلى أن استقرت الحال بيد إبراهيم بن حجاج الذي كان لطيف المعشر لبيباً سياسياً حاول التوافق مع الأمير عبدالله بدل التنافر، وكان يرسل له الهدايا، فأبقاه وأقرَّه على إشبيلية، واستمر كذلك حتى عهد الناصر.

لم تكن الثورة العربية في إشبيلية هي الأخطر على البيت الأموي في الأندلس من الخطر الجسيم الذي كان يحدق بهذا البيت الذي أخذ في الترنح، فقد تحالفت جبهتان خطيرتان من المولدين، هما ابن حفصون في الجنوب والغرب ومحمد بن لب القسي من أبناء موسى بن موسى في الثغر الشمالي، غير أن موت والد محمد بن لب جعله يعود دون أن يحقق الحلف المراد منه.

فاجأ عمر ابن حفصون من حوله بإعلانه اعتناق النصرانيه مع أفراد أسرته، وسمى نفسه صمويل، فنفر المسلمون من حوله وسخطوا عليه، فطلب الحلف مع بني قسي وألفنسو ملك ليون، كما حاول مفاوضة بعض العرب، لكنهم أنفوا منه ولم يساعدوه، إلا أن زعيم إشبيلية إبراهيم بن حجاج مالأه وحالفه انتقاماً من الأمير عبدالله لرفضه إطلاق ابنه الذي كان محجوزاً لديه.

هذه مأساة كبيرة أخرى تظهر لنا جلية في خطوة جديدة لم تكن قط مألوفة، وهي مناصرة المرتد في سبيل تحقيق الغاية، لتضاف هذه المأساة إلى مآسي الأندلس الكثيرة، من قتل الأقرباء والأبرياء، والمكائد، والدسائس، وغيرها كثير؛ طمعا في السلطة.

خشي الأمير عبدالله من هذا التحالف، غير أنه عزم على منازلته، فأرسل قائده أحمد بن أبي عبدة، فانهزم ابن حفصون، وآثر ابن الحجاج السلامة وعاد إلى الطاعة؛ خوفاً من قتل الأمير عبدالله لابنه عبدالرحمن الذي كان رهينة لديه.

وعلينا أن نذكر أنَّ بطليموس بقيت في يد عبدالرحمن بن مروان الحليقي الذي لم يستطع الأمير عبدالله زحزحته عنها فأبقاه.

أمـا طليطلة فكانت في يـد بني ذى النون من قبيلة هـوارة البربرية، وكان لب بن محمد مستولياً على تطيلة، وقد أشغل نفسه بالصراع مع ملك ليون ألفونسو، فكان شوكة ظلت تؤرق مملكة ليون حتى توفي، فتولى ابنه محمد بدلاً عنه وقد انضوى تحت لواء الأمير عبدالله.

ويذكر ابن الخطيب أسـباباً لهذه الفتن يذكر منها: «علو الهمم، وشموخ الأنوف، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة، إذ كان ما يحصـل بالأندلس أشـراقاً يأنف بعضـهم من الإذعان لبعض، وكذلك الاسـتناد عند الضـيقة والاضطراد إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض.

فـكان الأمـراء من بني أمية يـرون أن اللجاج في أمورهم، يؤدي إلى الأضـلولة، وفيها فساد الأموال، وتعذر الجباية، وتعريض الجيوش إلى الانتكاب، وأولياء الدولة إلى القتل، ولا يقوم السرور بغلبة الثائر بما يوازنه من ترحة الأمور».

ويمكنني أن أضـيف إلى ذلك أنَّ حكَّام الأندلس من بني أمية يتركون للوالي متسـعا من القوة والنفوذ، ويكتفون بما يجبيه من المال وإرسـاله إليهم، فتتعاظم سطوة الولاة ويكونون لأنفسـهم مراكز قوى بعيدة عن العاصـمة المركزية، لا سـيما أنَّ وسـائل الاتصال في ذلك الوقت كانت محدودة وكان من الأجدر تغيير الولاة بصورة دورية للحد من مراكز النفوذ.

كمـا أنَّ حكام الأندلس في أحايين كثيرة يُقـرُّون كثيراً من الولاة الخارجين عليهم بمجرد عودتهم للطاعة واسـتمرارهم في دفع الخراج، فيعيد هـؤلاء الطامعون محاولاتهم كلما رأوا الفرصة متاحة لهم طالما أنَّ جذورهم متأصلة في الثغر الذي يتولون إدارته، وطالما أنَّ مطامعهم ليس لها حدود، وقد يكون سـلوك بعض بني أمية مدعاة للتضـجر الشعبي الذي ينتهزه هؤلاء الولاة الطامحون؛ ليكون وقوداً لثوراتهم المتوالية في مناطق كثيرة من الأندلس.

كان عصـر الأمير عبدالله عصر الذروة من المآسـي والفتن منذ قيام الدولة الأموية، وكان العامل الخارجي أكثر العوامل تأثيراً على الدولة، وظلت دولة الأندلس في عهده دولة واحدة تحكم من خلال ولايات شبه مستقلة.

توفي الأمير عبدالله بن محمد بعد أن ترك اثني عشر ابناً وثلاث عشرة بنتاً، وبعد وفاته تدخل دولة بني أمية في الأندلس عصراً جديداً فذاً بقيادة الأمير ثم الخليفة عبدالرحمن الناصر.

عبدالرحمن النـاصر

أمـير المؤمنين عبدالرحمن الناصـر، جمع الكثير من الغرائـب والحظوظ المتلاحقة، فقـد كان والـده محمد بن الأمير عبـدالله ولي عهد أبيه، فقتله أخـوه المطرف بن الأمير عبـدالله وكان عمـر عبدالرحمـن وقتذاك يوماً واحـداً، كما تولى الحكـم بعد موت جده في وجـود عدد من أعمامه وأعمام أبيه وعمره نحو اثنين وعشـرين عاماً، ولم يزاحمه في الأمر منهم أحد برغم صـغر سـنه وكونه حفيداً وليس ابناً، غير أنَّ جده كان يوليه عطفه منذ صباه ويركن إليه في الملمات، وهناك من يقول: إنَّ جده قد أعطاه خاتمه بعد اشتداد المرض عليه في إشارة واضحة إلى استخلافه، وربما يكون للقادة والوزراء وموالي القصر دور في ذلك، ومن المستبعد أن يكون للنساء يد في مثل هذا الأمر، وقد كان عمه أحمد بن عبـدالله أول المبايعين، فقال: «والله لقد اختـارك الله على علم للخاص منا والعام، ولقد كنت أنظر هذا من نعمة الله علينا».

ومن التوفيق الذي صاحب هذا الأمير أن حكمه دام طويلاً حيث بقي حاكماً للأندلس خمسـين عاماً، واسـتطاع خلال هذه المدة أن يحد من الفتن والخروج عليه، إما من خلال السياسة وحسن التدبير، أو بموت الخصم أو خوفه منه، وكذلك الانتصار عندما يتطلب الأمر استخدام الجيش لإخماد نار الفتنة أو فتح المزيد من المناطق لتوسيع النفوذ.

والأمير عبدالرحمن الناصر هو أول من تسمى بأمير المؤمنين في الأندلس عندما خبا نجم بني العباس في المشرق واستبد موالي الترك على بني العباس، حتى إنمؤنس المظفر قتل الخليفة المقتدر، فاستغل الأمير عبدالرحمن هذا الحدث ليلقب نفسه بأمير المؤمنين وهو العاشق للأبَّهة وعظمة الملك.

وأمُّ عبدالرحمن الناصر جارية نصرانية اسمها «ماريا»، تطلق عليها الروايات العربية اسم «مزنة»، وقد تولى عام ٣٠٠ هـ وامتد حكمه حتى عام ٣٥٠ هـ.

تتلمذ على يد الأديب المعروف صاحب العقد الفريد أحمد بن محمد بن عبد ربه الذي كان قريباً أيضاً من أجداده الأمراء.

وقد قال ابن عبد ربه شعراً بمناسبة تولي عبدالرحمن الناصر الإمارة جاء فيه:

بدا الهلال جديداً والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدي إن كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد

وكان له من الولد أحد عشر ابناً، ورثه منهم تسعة أبناء كان أكبرهم ولي عهده الحكم وأمه جارية اسمها «مرجانة»، وكان لولي عهده شقيقان عبيد الله وعبدالعزيز، وله ولد واحد من زوجته القرشية الحرة بنت الأمير المنذر، وسمى ولدها المنذر على والد زوجته وعم أبيه المنذر بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط.

ليس في عهد عبدالرحمن الناصر من المآسي الكثير، فهو عهد ازدهار وهدوء وانحسار للفتن والقلاقل مع عدم خلو عهده منها، ولم يخل قصر الأمير من المماحكات والصراعات التي لم يمتد أثرها إلى سواه، فهناك القصة المشهورة بين زوجتيه القرشية فاطمة بنت الأمير المنذر والجارية مرجانة التي أصبحت أقرب نسائه إلى قلبه فيما بعد، فقد ذكر ابن حيان في المقتبس أن السيدة الكبرى مرجانة أم الخليفة الحكم كانت من السريات المفضلات عليهم بفضل أدب كان لها ورشاقة حركة يستحسنها مولاها الناصر لدين الله منها، فلا يزال كذلك يستدنيها كثيراً، ويعجب بحذقها، ويكثر تقريبها، وتعجبه لياقتها، وقد أوتيت من اللبابة، والفطانة، واللطف، والحلاوة، وجمال الصورة، وعذوبة المنطق، وملاحة الإشارة، وحلاوة الخليقة، أفضل ما أوتيته أنثى، فكانت صواحبها يحسدنها ذلك وينافسنها فيه فتتقوى باستعمال ذلك وتترقى وتزداد به عند الناصر لدين الله حظوة، إلى أن بذَّتهن جميعاً واعتلت على عظيمتهن جميعاً الحرة القرشية، فنالت ذروة السيادة وتفردت بأَثَرة الخليفة مولاها، وكان السبب في إيثاره لها على سيدتها ابنة عمه القرشية فاطمة بنت الأمير المنذر وجميع حظاياه، أنه انفرد يوماً للراحة في بعض رياض القصر بمن استدعى من جواريه، فقضى وطراً من لذته وطرب إلى التحول إلى حُرَّته السيدة القرشية بنت الأمير المنذر عمِّ أبيه، وكانت من سروات النساء، قد شُغِفَ بها أول خلافته فكانت أول نسائه، تزوجها بقصر الخلافة إذ كان مسكنه فيه في كنف جده الأمير

عمها الذي تبناها بعد موت أخيه المنذر، فكفلها الأمير عبدالله جدُّ عبدالرحمن الناصر وأحسن إليها، فنكحها الناصر لدين الله لما صار الأمر إليه وحظيت عنده، وولدت له منها ابنها المنذر بن عبدالرحمن الناصر المعروف بابن القرشية هو ونسله، وكانت من أكرم عقائل بني أمية وأشرفهم، إلاَّ فيما لا تسلم النساء فيه من ضعف الرأي وغلظ الحجاب (كما يقول ابن حيان).

قال: «فلما تشوقها الناصر لدين الله في يوم سروره ذلك دعا ببعض الوصائف القوامات، فقال لإحداهن: انطلقي إلى السيدة الكبرى فاطمة القرشية بعينها فأبلغيها سلامنا، وعرفيها أننا ضيوفها الليلة فلتستعد لنا إن شاء الله». قال: «فانطلقت إليها الوصيفة، فأبلغتها رسالة الخليفة، فاهتشَّت لها وقالت: يا مرحباً بسيدي وأهلاً وكرامة ورحباً، حبذاها من بشرى أنا لها ساعية، وبعرجها طائرة» وأمرت للوصيفة بجائزة سنية.

وصادف أن كان في المجلس عند حديث الوصيفة بعض كرائم القصر وأمهات أولاد الخليفة وفيهن جاريته مرجانة، فلم تمتلك بغالب ظرفها ومرهف حيلتها أن قامت إلى القرشية مهنئة لها بالفرحة غابطتها بالليلة، فأكبت على أطرافها مقبلة، وقالت: «بارك الله لك أيتها السيدة الشريفة، في هذه النعمة الحادثة، وهنأك هذه البشرى القادمة، وأفرغ عليك فيها الاستحسان، ومنحك نهاية السرور والموافقة، طوبى لك أن يكون خليفة الله ضيفك الليلة، وتبيتين ضجيعة سيد البرية، ثم أخذت مرجانة العود فقرعته مغنية بإيقاع هزَّ أعطافها، ونظمت شعراً في حينها فقالت رجزاً:

يا ليلة لو أنها تبتاع لي أو تشترى شريتها بكل ما أطلبه من المنى

فقالت لها القرشية: «ويحك يا مرجانة، لقد أفرطت في إطرابي هذه الليلة وذلك من فرط صلفك ومجونك، وهذه ليلة من ليالي الأنس الغر المحجلة، ليالي الأنس، وما قد سرني به في هذه الليلة المزرية بكل الليالي ففيها زيادة لمنزلتي عنده وحقي عليه»، فقالت لها مرجانة: «يا سيدتي، اللذَّة مع الحِبرّة، والله إنَّ الدنيا بأسرها لتقل عند ما أحدثه الله لك من هذه النعمة فهنيئتها تامة، والله لو استطعت شراءها بجميع ما أملكه ولا أحاشي سوى ثوبي الذي أستتر به لخرجت من جميعه طيبة النفس، ولعددت أني رابحة الصفقة».

فقالت لها القرشية في سبيل الشطط ومعنى المهازلة والمزاح: «أعطني بها عشرة آلاف دينار وأنا أبيعها لك»، فقالت: «قد قبلت واشتريت واغتبطت». ثم انطلقت من منزلها إلى القصر فجمعت ما كان عندها في القصر وقدمتها للقرشية، ولحقت القرشية في حينها الرغبة في المال وقالت لقهرمانتها (خادمتها) اقبضيها منها، فقالت مرجانة للقرشية: «لا بد والله أن آخذ رقعة بخط يدك العزيزة أيتها السيدة الكريمة، ببيعك مني هذه الليلة واستحقاقي إياها؛ لأستظهر بها عند مولانا أمير المؤمنين فيعطيني بحقي»، فاستخفت القرشية بالأمر، وتوكلت على لطفه معها ومحبته لها، وقدرت أنَّ فعلها يجري عند الخليفة ابن عمها مجرى أعباث النساء المضحكة، فكتبت لمرجانة رقعة بخطها، وأشهدت لها من حضرها من كرائم الخليفة معتقدة أنَّ الأمر لا يعدو كونه مزاحا تسعد به الخليفة.

أما مرجانة فكانت قد بيتت الاستفادة من هذا الموقف للاستئثار بقلب الخليفة والإطاحة بابنة عمه المفضلة لديه.

وانصرفت مرجانة بالرقعه إلى منزلها ومقصورتها وأعدت عدتها وبالغت في عطرها وزينتها، وقعدت في طريق الخليفة الذي يقوده إلى القرشية، فلما أن تحرك من مكان منتزهه ومشى وأقبل قاصداً قصر حُرَّته القرشية، تصدَّت له مرجانة في أجمل شارة، وأفخر حلية، وأسطع طيب، فقالت: «إليَّ إليَّ، يا ابن الخلائف، فقد حباني الله بقربك، وعرضني لعدلك، وأنت حاكم الحكام ورحمة الله على الأنام، قد اشتريت مبيتك الليلة عندي بما حوته يميني، وأديته فضلاً عليه، وناولته الرقعة بخط القرشية والشاهدات عليها من كرائمه ببيعها منها الليلة، فلما نظر إليها عظم عليه، فاربدَّ وجهه، وهاجت نفسه غضباً على ابنة عمه القرشية، ثم تطلق سريعاً ارتياحاً لمرجانة وعجباً من شرف فعلها بصدق مودتها وقال لها: «يا مرجانة، حملت الرغبة في قربي والحرص على الاستكثار مني أن بذلت له مثل هذا المال الذي أهديته لك، في ثمن ليلة تعجلتها مني لم تكن لتفوتك بدنو نوبتك».

فقالت له: «يا ابن الخلائف، وتراني في فعلي غبينة؟ والله، والله، والله، لو أني ملكت هذا القصر، وما يحويه لما رأيته ثمناً في ساعة أخلص فيها إليك، ولحظة أنفرد بها منك، فكيف أنْ أستكثر ليلة منك بهذا المال الذي جادت به يدك الكريمة؟».

فقال لها: «فأبشري ثم أبشري، فقد ربحت تجارتك، وزكت صفقتك، ودَلَّلْتِ على شرف نفسك، وصدق مودتك، وتبت يدا ابنة عمي التي جهلت حقي، وباعتني بالثمن الخسيس زاهدة في، والحق أولى فيك، فاقتاديني إلى قصرك، فإنني طوع يمينك، وحبس هواك».

ثم صار إليها وبات عندها، وأطال المقام أياماً لديها، وكان ذلك سبب استحواذها عليه وغلبتها على قلبه، ورعى لها حق تحببها إليه وازدلافها لديه، فاتخذها سيدة نسائه، وكبرى حظاياه، وقمة قصره، وألقى إليها بمقاليده، ووثق بها في سره وجهره، وعوضها عن المال الذي دفعته للقرشية وأعطاها أضعافه.

فتقدمت لديه جميع نسوانه حتى كانت كرائمه وحظاياه لايصلن إلى مطالبهنَّ ورغباتهنَّ من الناصر لدين الله إلا بشفاعة مرجانة لهنَّ إليه، وتوسلهنَّ بها لديه، لغلبتها على قلبه. ورزقه الله منها بثلاثة من الذكور وبنتين وكانوا جميعاً أقرب أولاده إلى قلبه.

أما الحرَّة القرشية، فقد أقسم ألاَّ يدخل عليها، وخيرها بين المقام على أن يعتزلها مستمسكة بعصمته أو أن يسرحها، فاختارت المقام لديه إلى أن ماتت بعد موت مرجانة، لا سماء بكت عليها ولا أرض، كما يقول ابن حيان.

الحقيقة أنَّ كثيراً من العظام يكونون أضعف ما يكونون عند النساء، فهذا الذي تأتيه السفارات من ملوك الأرض ويحارب ويصارع ويتولى الأمور بنفسه صغيرها وجليلها، تستطيع جارية من جواري القصر السيطرة على قلبه وانتزاع قلبه من ابنة عمه بسبب مزاح لم تدرك أثره، وكيف لرجل عظيم مثل عبد الرحمن الناصر أن تغيب عنه في تلك اللحظة حقيقة مكائد النساء، فينصرف قلبه عن ابنة عمه التي أحبها منذ صباه بسبب احتضان جدها له ولها ليعيشا عاشقين مدة غير يسيرة من شبابهما، فما يلبث أن يجفوها بسبب حيلة من أحد جواريه؟

لقد أورد ابن حزم في كتابه نقط العروس في نوادر الأخبار شيئاً من معايب أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر، فقال: «وما كان عبد الرحمن الناصر لدين الله بالبعيد من جدِّ جدِّه الحكم بن هشام في انهماكه في المعاصي، والتباسه بالريب، وعبثه في الرعايا، واستهتاره باللذات، وتغليظ العقوبات، وتهوينه للدماء.

فهو الذي علق أولاد السودان في ناعورة قصره بدلاً من القواديس (الدلو) الغارفة للماء فأهلكهم، واشترى رسيس الماجنة مضحكته، وتقلدت بسيف وقلنسوة وهي عجوز سوء فاجرة، إلى مناكير كانت له باطنة، والله أعلم».

ولقد حمل أكبر خواصه من الخصيان ساكني داره ومشاهدي غيبه الكثير من القصص العجيبة، ومنها أنَّ جارية من عليات حظاياه المعتدات بعلاقته، كان في خلقها بأو (فخر) لاتوفيه به حق تعاظمه، خلت به يوماً من أيام أنسه بالشراب بروضة الزهراء جالسة إلى جنبه والكأس قد عملت فيه، فألحَّ على محياها باللثم والعض حتى كلِّفت من فعله، فكسرت طرفها (أي أمالت بنظرها عنه)، وثنت جيدها عابسة سروره، فأثارت من غضبه ما أمر الخصيان من أجله بإمساكها، وإدناء الشمعة من وجهها، وإحراق محاسنها، وطمسها حتى خمشوا وجهها، وأساؤوا إحراقها، وقضوا عليها فكانت من أقبح فعلاته.

وحكى سيافه أبو عمران، أنَّ الأمير استدعاه ليلة إلى مجلسه بقصر الناعورة، فدخل إلى الأمير في مجلس شرابه، فوجده جالساً القرفصاء وجارية كالمهاة محبوسة في أيدي الخصيان إلى ناحية وهي تسترحمه فيرد عليها أغلظ رد، ثم قال: «دونك الفاسقة يا أبا عمران، فاضرب عنقها»، فتأنيت فقال لي: «اضرب قطع الله يدك وإلاَّ قطعت عنقك».

فأدناها الخادم إلي وقد شمر غدائرها وكشف عن عنقها، قال: فضربتها ضربة فأطرت رأسها، وسمعت لوقع الشفرة صليلاً لم أعهده، فرفع جسد المرأة، ومسحت سيفي في نطعي وطويته وانطلقت به.

وقال ابن حيان: «ومما رعَّب عبدالرحمن الناصر الناس به من فظيع المخاوف اتخاذ الأسُود إرهاباً لعذابه، وذلك من أفعال جبابرة الملوك في المشرق، ذهب إلى اقتفاء أثرهم فيها، وهي سباع استدعاها من قبل ملوك المغرب وقد سلَّطها على بعضٍ مما لا يروقون له إلى أن زهد فيها آخر عمره».

وأمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر كان يحسن التوازن السياسي، لكنه كان صارماً في الوقت الذي تستوجبه الضرورة، بل يتعداه إلى أن يكون جائراً في أحايين كثيرة.

فقد قتل ابنه عبدالله عندما انتهى إلى علمه أنَّ عبدالله يحسد أخاه الحكم ولاية العهد ويرى أنه الأجدر بها، وأنه اتفق مع أحد الخصيان في القصر يقال له: ياسر على محاولة زحزحة أخيه، وانضم إليه في هذا الأمر عدد من رجال الدولة، فانكشف الأمر فلم يتوان في قتلهم، حيث قتلهم جميعاً بمن فيهم ابنه عبدالله. وفي قول آخر: إن عبدالله سمت نفسه إلى طلب الخلافة وتابعه قوم فقبض عليهم جميعا وسجنهم إلى أن كان يوم عيد الأضحى سنة ٣٩٣ هـ وأحضرهم بين يديه وأمر ابنه أن يضطجع له فاضطجع فذبحه بيده والتفت إلى خواصه فقال: هذا أضحيتي في هذا العيد وليذبح كل منكم أضحيته، فاقتسموا أصحاب عبدالله فذبحوهم عن آخرهم.

وكان صراع مرير آخر قد حدث في البيت الأموي، فقد سعى عمُّ أبي الأمير عبدالرحمن الناصر واسمه محمد بن عبدالجبار بن الأمير محمد باتهام أحد إخوة الأمير عبدالرحمن واسمه القاضي بن محمد، وقال : إنه يحاول العصيان على أخيه، كما أنَّ القاضي بن محمد أخي الخليفة عبدالرحمن الناصر وشى عند الخليفة بعمٍّ أبيه محمد بن عبدالجبار واتهمه بالتهمة نفسها، فاستطلع الأمير على الجليّ من أمرهما فقتلهما جميعاً.

وقام الناصر بقتل عدد من أبناء عمومته لا سيما أبناء إسحاق بن محمود بن إسحاق ابن إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك بن مروان، وهو لا يتورع عن قتل أقربائه أو وزرائه في سبيل استتباب أمنه والحفاظ على ملكه.

لقد كان عبدالرحمن الناصر صارماً مثل جده الأعلى عبدالرحمن الداخل، وكان يمسك مقاليد الأمور بيده ولا يركن إلى أحد قط، فقد قال لأحد السفراء الذين قدموا إليه: «مع أنَّ ملككم أمير حكيم، لكن هناك ما لا أستسيغه في سياسته، فهو يوزع سلطاته على أتباعه بدلاً من أن يقبض جميع السلطات من يديه؛ لأنه يعتقد أنه يربح بتوزيع تلك السلطات، فهذا خطأ فادح فإنَّ مداراة العظماء لايمكن إلاَّ أن تزيد من كبريائهم وتذكي رغبتهم في الثورة».

هذه الجملة الأخيرة توضح لنا أسلوب عبدالرحمن الناصر في الحكم، ولهذا فقد استأصل رؤساء القبائل العربية ذوي العصبية والزعامات البارزة، واعتمد على بطانة ذليلة من الفتيان الصقالبة والمولدين. والصقالبة كما أسلفنا مجموعة من الأسرى والخصيان الذين يتم جلبهم صغاراً وخصيهم للعمل في القصر، وهم مع مرور الوقت أصبحوا مزيجا من الفرنسيين والألمان والأسبان والإيطاليين وغيرهم، وكانوا من الجنسين ذكوراً وإناثاً ويُعَلَّمُونَ الإسلام واللغة العربية كما يتم تربيتهم على القيم العربية، وفي عصر عبدالرحمن الناصر أصبح لهم نفوذ كبير في القصر وإدارة الجيش فنالوا الكثير من المال والضياع، وقد بلغ عددهم في عصر عبدالرحمن الناصر ثلاثة عشر ألفا وعدد النساء بالقصر نحو سبعة الآف يغدق عليهم من الطعام والمال، وكان يرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم امتهاناً لهم وإذلالاً؛ حتى تتكسر هيبتهم.

عبدالرحمن الناصر كان كثير التوفيق في حروبه، كما أن ظروفا كثيرة تظهر لتمنحه مزيداً من الانتصار، حتى المحل (قلة المطر) الذي حلَّ بأرضه مرتين خلال عهده ساعده في النيل من مناوئيه، كما أنَّ الصراعات بين أعدائه تخرج بين الفينة والأخرى لتدفع عنه عناء حرب أو لتسهِّل له درب انتصار.

فقد قام فتح بن موسى بن ذي النون ومعه محمد بن إدريس الرباص على والي الخليفة؛ رغبة في الاستئثار بالحكم، وتنازعا فأرسل لهم الخليفة عبدالرحمن الناصر قائدين من قواده، وجلب رأس محمد بن إدريس إلى قرطبة فكان أول رأس من رؤوس الخارجين يجلب إليها.

قبل أن يبدأ عبدالرحمن الناصر أول غزوة له يتمكن قاضي البيرة من إقناع أهلها بالعدول عن العصيان والانصياع والطاعة للخليفة الجديد، فيتم له ذلك، وهذه من بوادر التوفيق.

وقد حاول أحد العصاة القابعين في حصن «المتلون» واسمه سعيد بن هذيل أن يجرب حظه في المقاومة، فكان عبدالرحمن الناصر صلفاً قوياً أحرق الحصن، فاستسلم سعيد بعد قتل عدد من رجاله، وقد جعلت هذه الحادثه عددا من الحصون تتهاوى تهاوي النجوم.

وعندما وصل إلى معاقل غريمهم القديم، عمر بن حفصون، استسلمت كثير من الحصون وامتنع أحد الحصون التي يقطنها بعض من المولدين والنصارى، فضربهم بالمنجنيق، وقطع الماء عنهم ثم دخل عنوة فقتلهم جميعاً، فخاف أعداؤه من بطشه، وكان جعفر بن عمر بن حفصون في إحدى تلك القلاع، وعندما علم بما حلَّ بغيره هرب في جنح الظلام حتى لحق بأبيه في معقله «بينشر» فنزل عند طاعته نحو ثلاث مئة ما بين حصن وبرج، فقال الشاعر في ذلك:

في نصف شهر تركت الأرض ساكنة ... من بعد ما كان منها الظهر قد ماجا
لما رأوا حومة الشاهين فوقهم ... كانوا بُغَاثاً حواليها ودُرَّاجا

وفي إشبيلية يساعد الحظ عبدالرحمن الناصر فيموت حاكمها عبدالرحمن بن حجاج المتمرد على السلطة المركزية في قرطبة، ويجتمع أهلها على تأمير أحمد بن مسلمة متجاوزين أخا المتوفى محمد بن حجاج، فينحاز محمد بن حجاج بمن معه إلى جانب الأمير عبدالرحمن، وعندما علم أحمد بن مسلمة بالأمر خشي العاقبة، فأرسل رسله إلى عبدالرحمن الناصر طالباً مد يد الطاعة بشرط بقائه في حكم إشبيلية، وتوسط في ذلك إسحاق بن محمد القرشي المرواني وعمر بن عبدالعزيز المعروف بابن القوطية وموسى الخولاني، لكنَّ الأمير عبدالرحمن الناصر لم يقبل شفاعتهم وردهم خائبين.

وعندما عادوا بخطاب الرفض من الأمير عبدالرحمن الناصر، استغاث بعمر بن حفصون، فقدم بجيشه لنصرته لكنَّ محمد بن سلمة قابله خارج المدينة، فتمت معركة ضارية انهزم فيها عمر بن حفصون، ففرَّ بعد أن خسر الكثير من رجاله وعتاده.

فوجد أنه واقع لا محالة، ففكر طويلاً في حيلة يتخلص بها مما وقع فيه، فطلب من الوسطاء إخفاء خبر الرفض وتزوير خطاب آخر يظهر موافقة الأمير عبدالرحمن الموادعة وإشاعته في إشبيلية مع عودة الوسطاء ثانية إلى قرطبة، وطلب حضور المولى بدر لتسليمه المدينة دون شروط بأسلوب لا يغضب المعارضين لهذه الخطوة المتمثلة في إظهار المعارضين من الفرسان خارج المدينة ومن ثم فتح أبواب إشبيلية للقادمين من قرطبة وإغلاق الباب لإعلان حقيقة الأمر، فيسقط في يد المعارضين، ويسلم العامة من شغب الجند.

ودخل الوفد قرطبة ليلاً، وطرقوا باب بدر، فبادرهم بدر قائلاً: «النفاق بعد الحج؟» فقال له: «أعوذ بالله أيها الحاجب، من الضلالة» لقد فتر النشاط، وملت الفتنة، فتأنيت للحيلة، وجئتك كيما تسير معي إلى أشبيلية فأدخلكها عفواً بغير مشقة، إن شاء الله، فقم في شأنك ولا تتثبط، فقال له بدر:كيف ذلك بإجماع أو مهاجمة؟» قال: «لا، بل بحيلة تكون كالإجماع» فقال الحاجب بدر: «فاذكرها فإن السلطان لا يعمل على الخطر»، فعرفه بالأمر، وأشار إليه أن يكون هو الخارج إلى أشبيلية في هذا الأمر، فأنكر الحاجب بدر هذا التدبير وقال: «هذا خطأ وركوب غرر، فإن خروج مثلي لايستتر، ولست آمن سبق خبري فيبطل تدبيرك» فقال له رسول الأمير: «إنه قال ما سلمت قط حيلة من المخاطرة، وأنا من تمام ما دبرته على ثقة، فقم فيه بجد، ولا تتلعثم فالجد عليك، والقضاء محجوب عنك».

وذهب بدر إلى الأمير عبدالرحمن وأخبره الخبر، فألزم بدرا الخروج معه وقواه بعزمه، وسار بدر بمن معه، وتم الأمر كما أرادوا، فدخلوا وأغلقوا الباب وبقي الفرسان الذين ليسوا على الطاعة خارج السور ويبلغ عددهم نحو ألف، وعندما سمعوا بالخبر عادوا إلى المدينة لدخولها فوجدوا الأبواب مغلقة، فانتظروا يومين حتى تم تولي أهل الطاعة أمن المدينة، وأمر بدر الحاجب بفتح أبواب المدينه ليلاً حتى يذهب الفرسان إلى منازلهم دون أن يعرفهم أحد حتى لا يروا مكروهاً فيما بعد.

وهكذا يستمر التوفيق حليف عبدالرحمن الناصر دون عناء كبير حتى في فتح المدن الكبيرة مثل إشبيلية.

وساء محمد بن مسلمة ما فعله غريمه أحمد بن مسلمة برغم أنهما أبناء عمومة فحاول النكوص فلم يفلح.

وحدثت مأساة من مآسي الأندلس في عهد عبدالرحمن الناصر وهي وقعة «بابرة» بين «أردون بن أدفونش» ملك الجلالقة وبين المسلمين الذين في «بابرة» وكان واليها مروان ابن عبدالملك بن أحمد، انهزم فيها المسلمون بعد أن أبلوا بلاءً حسناً، فقتل مروان في مسجده، وسبي جميع نسائه وولده وأهله، وأصيب بها من السبي ما نيف على الأربعة آلاف من النساء والولدان.

ومن المآساة إلى التوفيق، فقد وجد غريمه اللدود عمر بن حفصون أن لا سبيل إلى مواصلة الانشقاق بعد فشله المتواصل وسقوط الحصون في يد عبدالرحمن الناصر، ووجد أنه من الأجدر له ولأسرته العودة إلى الطاعة لا سيما أنَّ ذلك تم قبل وفاته بثلاث سنوات، مما يمكن معه القول: إنه قد أحس بقرب أجله أو إنَّ مرضاً قد ألمَّ به فنظر بعين البصير المتعامل مع الواقع، والذي ينظر إلى مستقبل أهله وأعوانه.

وعندما عزم على الطاعة، رأى أن يذَكِّرَ الأمير عبدالرحمن الناصر بموقفه من أبيه قبل قتله، وأن يجعل ذلك ركيزة حديثه لشفعائه، وكان طبيب الأمير وحاجبه الوجهة التي رغب عمر بن حفصون في طرقها لتوصيل رسالته إلى الأمير وذلك لسابق صداقة معهم،فتم ذلك، وفرح الأمير بالخبر وتم له ما أراد. وبعد مدة هلك عمر بن حفصون بعد أن ظل مناوئاً لأمراء بني أمية قرابة ثلاثين عاماً.

مأساة كبيرة عاشتها الأندلس وذلك بهزيمة المسلمين في موقعة غزوة الخندق، وهي الغزوة التي خرج فيها الأمير عبدالرحمن الناصر بنفسه لقتال أهل جليقية فكاد يلقى حتفه، فكانت سبباً في تغير إستراتيجية الأمير عبدالرحمن تغيراً كاملاً حيث لم يخرج بعدها لحرب قط، بل يرسل قادته للقيام بالغزو، ورد العدو، كما كانت سبباً في تحول الأمير إلى الاستمتاع ببناء القصور كقصر الزهراء والركون إلى الدعة، وأيضاً كانت سبباً في تسليمه كثيراً من الثغور إلى أكابر ساكنيها ووراثها من الأجداد والآباء مكتفياً بطاعتهم له وإرسالهم الجباية، تاركا لهم إدارة مطلقة لتلك البلاد، مثل آل نجيب، وآل ذي النون، وآل زروال، وآل غزوان، وآل الرزين، وآل الطويل، واكتفى بإرسال العون لهم عند الحاجة وتركهم شوكة في خاصرة عدوه يكتفي بهم شره ومكره.

وكانت هذه السياسة نواة لحكام الطوائف فيما بعد حيث عظم شأنهم، وازداد نفوذهم، وكثر أتباعهم، وأصبح من العسير نزولهم طواعية عما هم فيه من الجاه والمال والسلطان.

وحدث آخر لم يمتد أثره كثيراً غير أنه جدير بالتنويه، فالأندلس كانت موحدة المذهب يعتنق أهلها مذهب مالك، وإذا بدعوة جديدة تحط رحالها في هذه الأرض الغائبة عن فتن المذاهب، وهي دعوة تدعو إلى مذهب المعتزلة من الجدل والتأويل إضافة إلى الزهد والتقشف، وقد حمل لواءها عالم متحدث اسمه محمد بن عبدالله بن مسرة.

قال عنه ابـن حيان: «كان مذهب الظنين المرتاب المرائي بالعبادة، المنطوي على دَخَل السريرة، محمد بن عبدالله بن مسرة، الرابض للفتنة، دبَّ في الناس صدر دولة الخليفة الناصـر لدين الله، واسـتهواهم بفضـل ما أظهره من الزهد وأبداه من الورع، وتشدد في المكاسب، وأيأس من التجاوز، وأوحش من الناس، وَأكثرَ من الانتباذ عنهم، وقد أوتي من عذوبة الكلام، ومتانة الحجاج، والغوص على دقيق المعاني، والافتنان على ضروب العلوم، ما يستلب منه القلوب، ولا يعيبه عنه الصواب».

ولم يلبث دعاته مع انتشارهم في البلاد أن تلبسوا بعده بما أوعزهم من مكنون علمه، وأخذ عليهم من بيانه، وصغت إليه أفئدة جماعة من الناس من خاصة وعامة أذاعوا سرَّاً وأفشـوا من مذهبه، فكثر القول في شـأنه وشـيم الخلاف من تلقائه فذُعِرَ له أهل السنة من أهل قرطبة وتوقعوا له البلية.

ولم تسـتمر هـذه الدعوة طويلاً حيث كـثر الإلحاح على الأمـير عبدالرحمن من قبل العلماء، فحد من انتشار تلك الدعوة بعد موت صاحبها بعشرين عاماً.

وظهرت أيضـاً الدولة الفاطمية في المشـرق، فاسـتغلها الطامعون في الحكم أداة لنيل المرام، وكان الأدارسـة في المغرب أصـحاب الإمارة فيه، ففرع سـار مع الدعوة الشـيعية، وفرع نأى بنفسه عنها وانحاز إلى بني مروان نكالاً ببني عمه.

وتحدث ابن حيان عن عبيد الله الشـيعي فقال في حقه: «فأشـاع الفسـاد، فهوى إلى دعوته الضالة أكثر هؤلاء الأمراء الأدارسة نصراً للعصبية، وإغماضاً عن الدنية، وإبعاداً في الأذية، وانحرافاً عن هوادة بني أمية للأحقاد القديمة على علم منهم بما يخبئونه من الجراية، اسـتهدف بذلك بعضـهم إلى الناصر لدين الله، فاكتسـب منه ومن ولده بعده أحقاداً مويئة جرَّتْ عليهم بعد حين، فأحلت بهم الفاقرة.

وناقضـهم فيه يومئذ ابن عمهم إدريس بن إبراهيم السليماني الحسني أمير أرشقول مـن أرض العـدوة بالانحراف انعطافـاً، وبالتطابق وصـالاً، وكاتب الأمـير عبدالرحمن الناصر، فقال: قد انتهى إلى أمير المؤمنين سيدي مباعدتي لكلب السوء اليهودي الخنزير، المبدل لدين رسـول الله ﷺ المعلن الكفر الجاحد للتنزيل، وقيامي مع ابن خزر ولي أمير

المؤمنين عليه، وخروجي عن جميع الحسنيين قومي في منابذته، واجتناب طرائقه، وأني لم أدخل له قط مدخلاً، ولا أقمت له عندي عَلَمَاً، مع تحسبي له ونكايتي لشيعته، وقتلي لرجاله، ومقتي لذوي محبته، وأرجو عند قيامي بدعوة الإمام سيدي -أعزه الله-، ونهوضي برايته، أن تكون كلمتي العليا، ويدي الطولى، بنعمة الله ومنته».

موقف بعض من الحسنيين الأدارسة من موالاة عبيد الله الشيعي كان انتقاماً وعصبية، وموقف بعضهم الآخر الموالي لعبد الرحمن الناصر كان تملقاً ونفاقاً وطلباً للدنيا، ومثلهم كان كثير من المسلمين، وبمثل هذه المواقف ولهذه الغايات ضاعت الأندلس.

obeikandl.com

مدينة الزهراء: المدينة التي بناها الخليفة عبدالرحمن الناصر
وطمست معالمها في عهد أحد أحفاده، وهو الخليفة ابن عبدالله المستكفي.

محراب مسجد مدينة الزهراء.

obeikandl.com

الحكَم بن عبدالرحمن الناصر (المستنصر)

الحَكَم أمه أم ولد اسمها «مرجانة»، وهي المرأة التي نالت مالم ينله غيرها من زوجات الملوك للقصة المشهورة عنها مع ضرتها القرشية.

تولى الحُكَم بعد وفاة أبيه وعمره نحو ثمانية وأربعين عاماً، ويقال: إن والده قد ولاَّه العهد منذ أن كان عمره ثماني سنوات ولم يتزوج مدة حكم أبيه، ويقال: إن والده كان يغار عليه ويأبى أن يشاركه أحد فيه، حيث كان يسكنه معه في قصره مع أصغر أبنائه المغيرة، بينما كان لأبنائه الآخرين وعددهم أحد عشر قصور أخرى.

ولم يشهد عهده مآسي يمكن ذكرها في هذا الموضع، فقد أورثه والده إرثاً عظيماً مستتباً لم ينغص عليه فيه سوى وصول الدعوة الفاطمية إلى المغرب الأقصى وخشيته من ولوجها إلى ما تحت سلطانه، وبعض الحروب في الشمال، وكان من خير حكام بني أمية علماً وعدلاً وخلقاً، وأورد المقري في نفح الطيب ما ذكره المؤرخون بحقه فقال: «إنه كان حسن السيرة، مكرماً للقادمين عليه، جمع من الكتب ما لا يعد ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل: إنها أربع مئة ألف مجلد، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها، وكان عالماً نبهاً صافي السريرة، وكان ذا غرام بالكتب، قد آثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره، وجمَّت استفادته، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب نسيج وحده، وكان ثقة فيما ينقله». وكان له شعر مثل قوله:

إلى الله أشكو من شمائل مترف ... علي ظلوم لا يدين بما دنتُ
نأت عنه داري فاستزاد صدوده ... وإني على وجدي القديم كما كنتُ
ولو كنت أدري أنَّ شوقي بالغ ... من الوَجْدِ ما بُلِّغْتهُ لم أكن بنتُ

وكان يقضي مظالم الناس، ويردع الولاة عن ظلمهم، ويتحرى العدل بسريرة صافية نقية، وقال صاحب الجذوة: إنه قد رام قطع الخمر من الأندلس وأمر بإراقتها وتشدَّد في ذلك وشاور في استئصال شجرة العنب من جميع البلاد، فقيل له: إنهم يعملونها من التين

وغيره فتوقف عن ذلك، ولقد قال أحد الشعراء وهو يوسف بن هارون الكندي قصيدته المشهورة متوجعاً فيها لشاربها، وفي القصيدة يذكِّر الشاعر الحَكَم المستنصر بقصة أبي حنيفة مع جاره اليهودي الذي كان يشرب الخمر ليله كله وأبو حنيفة قوَّام في الليل يعبد الباري ويتضرع إليه مصلياً وداعياً وقارئاً للقرآن، وكان اليهودي إذا أخذت الخمر منه كل مأخذ تمثل بقول الشاعر العرجي:

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وعندما قام الإمام أبو حنيفة كعادته آخر الليل للعبادة والصلاة، لم يسمع جاره الذي اعتاد على سماع صوته، وسأل من عنده: مافعل جارنا هذا الذي يغني في كل ليلة؟ أهو مريض أم غائب؟ فقالوا: إنه مسجون، فقال: ومن سجنه؟ فقالوا: خرج في الليل لبعض حاجته فلقيه أصحاب عيسى بن موسى صاحب الشرطه فأتوا به، فأمر بسجنه، فلما أصبح أبو حنيفة لبس ثيابه، وركب دابته، وقصد عيسى بن موسى في بيته، فلما أُعْلِمَ عيسى بن موسى بمكان أبي حنيفة خرج يتلقاه مسرعاً، وبالغ في تكريمه وبره، وسأله عن حاجته فقال له: لي في سجنك جار اسمه عمرو، فقال عيسى بن موسى: يطلق كل من كان اسمه عمرو بسجني من أجل جار الفقيه، فأطلقه وخلقاً كثيراً معه، فأتى الرجل أبا حنيفة يشكر له، فلما وقعت عينه عليه قال له: أضعناك؟ قال الرجل لا والله بل حفظت الجوار حفظك الله.

وفي هذه القصة قال الشاعر الكندي:

بخطب الشاربين يضيق صدري وتوجِعُني بليتهم لعمري
وهل هم غيرَ عشَّاقٍ أصيبوا بفقد بائب ومنوا بهجر
أعُشاقَ المدامة إن جزعتم لفرقتها فليس مكان صبر
سعى طلاَّبكم حتى أريقت وماءٌ فوق وجه الأرض يجري
تحريتم بذاك العدل فيها بزعمكم فإن يك عن تحري
فإنَّ أبا حنيفة وهو عدل وفرّ عن القضاء مسير شهر
فقيه لا يدانيه فقيه إذا جاء القياس أتى بُدرِّ

وكان من الصلاة طويل ليل ... يُقَطِّعَهُ بلا تغميضِ شفر
وكان له من الشُّراب جار ... يواصل مَغْرباً فيها بفجر
وكان إذا انتشى غنَّى بصوت ... المضاع بسجنه من آل عمرو
«أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر»
فغيب صوت ذاك الجار سجن ... ولم يكن الفقيه بذاك يدري
فقالوا: إنه في سجن عيسى ... أتاه به المحارس وهو يشري
ويمَّمَ جاره عيسى بن موسى ... فلاقاه بإكرام وبر
فقال: سَجَنْتَ لي جاراً يسمى ... بعمرٍو قال: يطلق كل عمرو
فأطلقهم له عيسى جميعاً ... لجار لا يبيت بغير سُكْرِ
نواقعها من أجل النهى سراً ... وكم نهي نواقعه بجهر

وقد جلس على كرسي الحكم بعد وفاة أبيه بيوم واحد وطلب حضور إخوانه جميعاً وأصرَّ على شقيقيه عبيد الله وعبدالعزيز، فتمت له البيعة.

وكان الخليفة الحكم المستنصر يرقب التغيير الذي حدث في المغرب وشمال أفريقية باستفحال الفاطميين، وكانت صنهاجة من قبائل البربر تمالئهم، بينما كانت زناتة تسير في ركب بني أمية، وكان الأدارسة مبغضين لبني أمية برغم إظهارهم الولاء لهم، فأبت مآسي الأندلس إلاَّ أن تسطِّر حضوراً في عهد المستنصر، وحدثت حروب عظيمة مات فيها العديد من المسلمين من كلا الطرفين، وضلت الخيول وجهتها فاتجهت إلى الجنوب بدلاً من اتجاهها شمالاً لقتال العازمين على إخراجهم من الأندلس، واستطاع ردع الفاطميين وأعوانهم، فالتفت إلى عشقه الكبير، وهو جمع ما أمكن جمعه من نفائس الكتب، حتى إنه قد اشترى النسخة الأولى من كتاب الأغاني لأبي فرج الإصفهاني بنحو ألف دينار، ولم يُذْكَرْ له كتاب في مكان إلا ويسارع في دفع مبالغ طائلة لحيازته، وقد انتشرت محبة اقتناء الكتب وتنافس الناس فيها منذ عهد عبدالرحمن الناصر إلى أن بلغت ذروتها وعظمتها في عهد الحكم المستنصر، وكانت زاداً طَعِمَهُ القابعون في الشمال، وشراباً أطفؤوا به ظمأهم، فاستزادوا، ونعم الزاد العلم.

وعاد المسلمون إلى الاقتتال كما سنرى فيما بعد لينقلوا بذرة العلم ويتأخروا في زراعتها فينالها غيرهم، لتزرع هناك وتعطي ثماراً يانعة استمروا في قطفها حتى يومنا هذا.

وقد كان الخليفة الحكم المستنصر عندما كان شاباً يعيب على بني العباس توليهم العهد لصغار السن، وبعدما أصبح كهلاً تاق إلى أن ينجب ولداً فأنجبت له «صبح» النافرية ولداً اسمه عبدالرحمن ما لبث أن مات ثم ولدت هشاماً فكان ولياً للعهد ولقبه بالمؤيد، وبعد أن بلغ سن التعليم تعاقب عليه عدد من الأساتذة المبرزين مثل يحيى بن يحيى والزبيدي والقسطلي.

قال ابن حيان في الحكم المستنصر: «إنه مع رجاحة عقله، كان ممن استهواهم حب الولد وأفرط فيه، وخالف الحزم في توريثه الملك بعده، في سن الصبا دون مشيخة الإخوة، وفتيان العشيرة، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة، فرط هوى ووهنة، انتقدها الناس على الحكم وعدوها الحانية على دولته، وقد كان يعيبها على بني العباس من قبله فأتاها مختاراً، ولا راد لأمر الله».

وأصيب الحكم بعد ذلك بقليل بشلل أقعده عن الخروج والحركة، وظل لا يفارق فراشه وهو يعاني من الفالج، وكان الأمر والنهي بيد وزيره جعفر بن عثمان المصحفي.

لقد مهد الحكم المستنصر لزوال حكم آبائه من خلال توليته ولاية العهد لابنه الصغير مع علمه بدنو أجله، حيث أصيب بالفالج مما ترك فراغاً كبيراً بعد وفاته استغله القائمون على شؤون القصر مما ستكشف عنه الأحداث اللاحقة.

هشام المؤيد بالله

توفي الحكم المستنصر بعد أن استوثق من ولاية العهد لابنه الصبي هشام الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، وبهذا ينقلنا التاريخ إلى مرحلة من مراحل الأندلس حبلت بالكثير من التغيرات الحقيقية لوجه تاريخ المسلمين هناك.

ولا يمكننا أن نُسمِّي عهد هشام المؤيد بالله عهد مآس وخراب ودمار، غير أنه عهد مكر وخداع وتنافس بين أصحاب النفوذ ذهب ضحيته من ذهب من سراة القوم وكبارهم لتدين للمتغلب فيهم، وهو توطئة لزوال حكم بني أمية وظهور دويلات الطوائف.

كما أن قاطنة الأندلس من العامة سلمت من صلا ناره، كما حفظ الله أرض الأندلس في هذا العهد من الضياع بل وطئت حوافر فرسان المسلمين أرضاً لم تطأها من قبل.

لقد أخفى الخصيان والفتيان في القصر بقيادة فائق وجؤذر موت الخليفة المستنصر؛ حتى يمكنهم تدبير أمرهم قبل أن يصل الخبر إلى القادة والعامة، وأجمعوا أمرهم على تنحية ولي العهد هشام وتولية عمِّه المغيرة، معتقدين أنَّ أمراً كهذا سيزيد من نفوذهم ويحد من نفوذ منافسيهم من الوزراء وغيرهم.

وكان المستنصر قد جعل أم ولده ومحظيته «صبح البافارية» وصية على ابنها ولي العهد، وكان الوزير آنذاك هو الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، ففاتح الخصيان فائق وجؤذر الحاجب جعفر فيما همّوا به من تنحية ولي العهد وتولية عمِّه، فتظاهر الحاجب بقبوله رأيهم واستحسانه وهو يبطن ما لا يظهر، وخرج من القصر وأغلقه، واستدعى على عجل عدداً من خاصة القصر المؤثرين ممن يثق بهم، منهم محمد بن أبي عامر وزياد بن أملح وغيرهم من القادة، وشرح لهم ما عزم عليه الصقالبة وبيَّن لهم أنَّ فعلا كهذا ستكون له تبعات خطيرة أهمها استفراد الصقالبة بالنفوذ.

وتم تداول الأمر وقادهم الرأي إلى التخلص من المغيرة بقتله، فانبرى محمد بن أبي عامر للأمر وكان مديراً للشرطة آنذاك، وسار معه عدد من الجند الموثوق بهم وأحاطوا بقصر المغيرة، وأبلغه نبأ وفاة أخيه الخليفة وجلوس ابنه هشام ولي العهد على كرسي

الحكـم وأنــه جاء ليتبين موقفه من الأمر، فما كان من المغيرة إلاَّ أن بيَّن لهم أنَّه يوافقهم فيما ذهبوا إليه وأنه مطيع لكل أمر يرونه في ذلك السبيل، غير أنَّ جواب المغيرة لم يمنع محمـد بن أبـي عامر عما همَّ به، فهو قاتله لا محالة، ففعل ضـاراً تضـرعه بحقن دمه عرضـ الحائط، فقتل المغيرة وعمره لم يتجاوز سـبعة وعشـرين عامـاً حتفاً أمام زوجته وأولاده، ثم أشاعوا أنه قتل نفسه ودفن في مكانه.

أمـا الفتيـان فما كان منهم إلاَّ التظاهر بالرضـا والاستبشـار بما وقع، وبهذا أصـبح القصـر ذا جناحـين، جناح الأحـرار بقيادة الحاجب جعفر المصـحفي ومحمـد بن أبي عامر مدير الشرطة، وفي الجناح الآخر الصقالبة بقيادة فائق وجؤذر، وكلّ منهما يتوجس خيفة من صاحبه.

واختفـى أثر الأطراف الأخرى من بني أمية الأقربين الذين يمكنهم منازعة الجناحين النفوذ، وبقيت «صـبح» البافارية أم الخليفة والوصـية على ولي العهد تسـتمد نفوذها من موقعها الشـرعي، وكانت هذه المحظية البافارية فائقة الحسن والجمال، شغف بها الحكم المستنصـر وتملكت فؤاده ومن خلال فؤاده ملكت المال والجاه والنفوذ والسـلطان، فأصبح لا يـرد لها طلباً، ولا ترفض لها شـفاعة، حتى إنها كانـت تعينٌ الوزراء والحجاب ورجالات الدولة متخطية بذلك حدود القصر، فكان الحاجب جعفر المصحفي وابن أبي عامر مدير الشـرطة والصقالبة يتسـابقون على استرضائها بأي وسـيلة كانت، وبعد موت المستنصر وتـولي ابنهـا الحكم أصـبحت أكثر نفـوذاً وأعظم أثراً في بادىء الأمر؛ بسـبب صـبغتها الشـرعية، حتى إذا ما اسـتوت على الجودي واسـتأثر ابن أبي عامر بمقاليد الحكم أطفأ نور سلطانها تحت شعاع شمسه، وهذا ما ستبينه الأحداث التي سيأتي ذكرها فيما بعد.

قلنا: إنَّ الحُكْمَ بصـفته الشـرعية أصبح في يد خليفة صـبي ليس له من الأمر شيء، وظهر على السطح أربع قوى كل منها يرتاب من الآخر ويتحين الفرصة للاستئثار بالنفوذ، صبح الوصية على ولي العهد، والصقالبة، والحاجب جعفر المصحفي ومن والاه، ومحمد ابن أبي عامر مدير الشـرطة، وكان لا بد من خروج بعض من هذه القوى بسـبب المطامح والتنافس بينها. فتعالوا بنا نبحر في خضم هذا الصراع على النفوذ المليء بالمكائد.

كان الصقالبة وعددهم نحو ألف رجل بقيادة فائق وجؤذر لايزالون قوة لايستهان بها، فأقدم الحاجب جعفر المصحفي على خطوة في سبيل إزاحتهم عن ساحة النفوذ، فمنعهم من دخول القصر من خلال الباب الخاص بهم وأجبرهم على الدخول من الباب الذي يدخل من خلاله غيرهم من عامة الناس، وطلب من محمد بن أبي عامر ضمهم إلى حاشيته، ففعل واستطاع بدهائه ترويضهم ليكونوا عوناً له، كما استمال بعضاً من البربر الذين كانوا يمالِئون الحاجب المصحفي مستقوياً بهم لمستقبل يروم إليه، وكان جوده وكرمه وإغداقه الأموال عليهم سبباً في انصرافهم عن الحاجب المصحفي الذي كان شحيحاً حريصاً على صيانة بيت المال.

ووجد الصقالبة أنفسهم وقد سحب البساط من تحتهم، فأجمعوا كلمتهم حول واحد منهم يقال له درِّي، لكن الحاجب مع ابن أبي عامر ألزماهم دورهم واصْطُفِيَتْ أموالهم وقُتِلَ منهم خلق كثير، فانزاح ركن من الأركان الأربعة التي كانت مصدر النفوذ.

استغل النصارى انشغال المسلمين بالتنازع حول السلطة، فهاجموا بعض حصون المسلمين، فلم يجد الحاجب جعفر المصحفي أنسب لقيادة الجيش من محمد بن أبي عامر؛ حتى لا تدخل قوة أخرى تزاحمه نفوذه.

وسار محمد بن أبي عامر بالجيش الذي جهزه الحاجب جعفر المصحفي، ونشبت معركة بين الطرفين انتصر فيها ابن أبي عامر نصراً مؤزراً، وعاد حاملاً معه الغنائم والسبايا، فكانت هذه المعركة عاملاً من عوامل بزوغ نجمه وثقة الناس فيه.

ومرة أخرى تنبعث الأحداث بنفحاتها العطرة على محمد بن أبي عامر، فقد لام الحاجب جعفر أحد الفرسان الشجعان والقادة الكبار وهو القائد غالب بن عبدالرحمن قائد الثغر الشمالي، متهماً إياه بالقصور في رد الأعداء والذود عن البلاد، فاستغل محمد ابن أبي عامر الوحشة بين الرجلين وأراد استقطاب غالب بن عبدالرحمن إليه فسعى إلى «صبح البافارية» الوصية على العرش في شأنه، واقترح عليها تعيينه في منصب «ذي الوزارتين» ليضعف بذلك نفوذ الحاجب جعفر وتم له ما أراد، ثم ذهب الاثنان معاً إلى أحد الثغور فغنموا الغنائم وحملوها مع السبايا إلى قرطبة، فازداد الناس ثقة فيه وعلا كعبه، وأصبح أقرب إلى بلوغ شأوه.

وبعد وصول ابن أبي عامر إلى قرطبة أصدر أمراً من الوصية على الحكم صبح البافارية بتنحية محمد بن جعفر الحاجب من حكم قرطبة، وقد كان والده جعفر قد منحه حكم المدينة منذ عصر الحكم المستنصر، وأصْدرَ أمراً آخر بتعيين محمد بن أبي عامر في هذا المركز، فكانت ضربة أخرى للحاجب جعفر لصالح حليفه السابق ومنافسه الحالي محمد بن أبي عامر، فأصبحت المدينة والجيش في يدي ابن أبي عامر.

وجد الحاجب جعفر نفسه أقل نفوذاً لصالح منافسه، فعقد العزم على استمالة القائد غالب بن عبدالرحمن من خلال النساء وذلك بمصاهرته ونكاحه لابنته، فلعل النساء يفعلن ما عجز عنه رأيه وتدبيره، وعلم محمد بن أبي عامر بالأمر فظهر بمكره ودهائه على الساحة، وبرز في وجه الحاجب جعفر وكأنما هو شيطان يلاحقه أينما حلّ، فسار محمد بن أبي عامر واتصل بالقائد غالب بن عبدالرحمن، وذكَّره بما بينهما من حلف وصداقة وبمواقفه السابقة معه وأنه الأولى بنكاح ابنته لا سيما أنه الشاب الوسيم والأديب المفلق، فأجاب غالب سؤله، وانصرف عن الحاجب جعفر وزوج ابنته بمحمد بن أبي عامر، وكان زواجاً باذخاً سار بذكره الركبان.

وسار غالب وصهره الجديد محمد بن أبي عامر في غزوة كان النصر حليفهما فيها، وعادا بالكثير من السبايا والغنائم، فقامت «صبح البافارية» بترفيعه إلى ذي الوزارتين أسوة بصهره.

أخذت مقاليد الأمر والنهي تتجمع في يد محمد بن أبي عامر، وأصبح الحاجب جعفر يدرك مآله برغم منافقة ابن أبي عامر له، وفي وقت رآه محمد بن أبي عامر مناسباً، قام بالترتيب مع «صبح البافارية» الوصية على العرش فصدَّر أمراً من الخليفة بإقالة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي من منصبه والقبض عليه وعلى أولاده وأعوانه، كما أخذ في تدقيق محاسبتهم، واصطفاء أموالهم، وقتل من رأى فيه الطموح والنباهة منهم، ثم زج بالحاجب جعفر في السجن مدة من الزمن ثم أخرجه وأبقاه محاصراً في منزله، ثم أعاده إلى السجن مرة أخرى، وأصابته الفاقة حتى باع جُلَّ ما يملك حتى بيته الذي كان يقطنه، وتفرق عنه الأخِلاَّء، وتبرأ منه الأصدقاء، فكأن قد سبق زمنه فقال في نفسه

ما قال ابن زيدون من بعده:

أنا حيران وللأمر وضوح والتباس
ما ترى في معشر حالوا عن العهد وخاسوا
ورأوني سامرياً يُتَّقى منه المساس

وعاش عدة أعوام كمداً ذليلاً مهاناً بعد عزّ عاش فيه، ورغد عيش نال منه أجلَّه.

تحدث المقري في نفح الطيب عن الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي فقال: «قال الفتح في حق المصحفي: إنه تجرد للعليا، وتمرد في طلب الدنيا، حتى بلغ المنة، وتسوغ ذلك الجَنَى، ووصل إلى المنتهى، وحصل على ما اشتهى، دون مجد تفرَّع من دوحته، ولا فخر نشأ بين مَغْدَاه وروحته، فسما دون سابقة، ورمى إلى رُتْبَة لم تكن لنفسه مطابقة، فبلغ بنفسه، ونزع عن جنسه، ولم يزل يستقل ويضطلع، وينتقل من مطلع إلى مطلع، حتى لاح في أفق الخلافة، وارتاح إليها بِعِطْفِه كنشوان السُّلافة، واستوزره المستنصر، عنه كان يسمع ويبصر، وحجب الإمام، وأسكب برأيه الغمام، فأدرك لذلك ما أدرك، ونصب لأمانيه الحبائل والشَّرَك، فاقتنى اقتناء مدخَّر، وأزرى بمن سواه وسخر، واستعطفه ابن أبي عامر ونجمه غائر لم يَلُح، وسره مكتوم لم يبح، فما عطف، ولا جنى من روضة دنياه ولا قطف، وأقام في تدبير الأندلس ما أقام وبرهانه مستقيم، ومن الفتن عقيم، وهو يجري من السعد في ميدان رحب، ويكرع من العز في مشرب عذب، ويَفُضُّ ختام السرور، وينهض بملك على لَبَّتِهِ مزرور، وكان له أدب بارع، وخاطر إلى نظم القريض مسارع، فمن محاسنه التي بعثها إيناس دهره وإسعاده وقاله حين ألهته سلماه وسعاده، قوله:

لعينيك في قلبي علي عيون وبين ضلوعي للشجون فنون
نصيبي من الدنيا هواك، وأنه غذائي ولكني عليه ضنين

وكان شاعراً جزلاً قال قصيدة رائعة وهو في السجن منها:

صبرت على الأيّام حتى تولّت وألزمت نفسي صبرها فاستمرّت
فوا عجباً للقلب كيف اعترافه وللنّفس بعد العزّ كيف استذلّت
وما النّفس إلّا حيث يجعلها الفتى فإن طمعت تاقت وإلّا تسلّت
وكانت على الأيام نفسي عزيزةً فلمّا رأت صبري على الذُّلِّ ذلّت
وقلت لها: يا نفس، موتي كريمةً فقد كانت الدنيا لنا ثم ولّت

ولقد مات -رحمه الله- في سجنه مسموماً، فيما قال آخرون: إنه قد قتل في سجنه، أما ابن حيان فإنه عزا ما حل به إلى انتقام الله منه لقتله المغيرة عم الخليفة هشام وأخ الخليفة المستنصر ولي نعمته.

وبوفاة الحاجب جعفر سقط ركن من أركان الحكم، ليحوز محمد بن أبي عامر على مفاتيح النفوذ، ويملك زمام الأمور، واتجه بعد ذلك إلى التخلص من كل ذي جاه، واستئصال شأفة من تتوق نفسه إلى الحكم من بني أمية، ودك حصون القوة عند كل عربي. فمن هو ياترى محمد بن أبي عامر؟

كان حميرياً من اليمانية وقبيلته مغافر المشهورة، دخل جدّه عبدالملك إلى الأندلس مع طارق بن زياد ووفد محمد بن أبي عامر إلى قرطبة من قرية تركش، وتأدب بها ثم افتتح دكاناً عند باب القصر يكتب فيه لمن يعنّ له كتب من الخدم والمرافقين للسلطان، إلى أن طلبت السيدة صبح أم المؤيد من يكتب عنها، فعرَّف به من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر، فترقى إلى أن احتاجت صبح البافارية زوجة الحكم إلى من يكتب لها رقعة، فكان موجوداً آنذاك فكتب لها فأعجبها أدباً وهيئة وهو الشاب الذي لم يبلغ السابعة والعشرين عاماً، فأشارت إلى زوجها الحكم المستنصر به، وكان كهلاً أشرف على الستين، بينما مازالت شابة في مقتبل العمر، ورغَّبت زوجها في تشريفه بالخدمة، وكان الحَكَمُ شغوفاً بها لايرفض لها شفاعة فولاه قضاء بعض المواضع، فظهرت منه نجابة واستمال قلبها بما يهديه لها من التحف والخدمة ما لم يتمكَّن لغيره، ولم يقصر - مع ذلك - في خدمة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي.

ويبدو أن محمد بن أبي عامر قد سحر «صبح البافارية» زوجة الحكم المستنصر بجمال محياه، وزهو شبابه، واكتمال هيئته، ودماثة خلقه، وبراعته في الأدب، ولباقته في الحديث، وزاد على ذلك تودده إليها بإرسال نفيس الهدايا وجميل التحف.

فازدادت به شغفاً واستحوذ على قلبها، وكان حسنه وأدبه مضرب المثل لدى نساء القصر كافة، وكان الخليفة المستنصر يراقب سحر هذا الشاب لنساء القصر، فقال يوماً لأحد ثقاته: «ما الذي استلطف به هذا الفتى حرمنا، حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف

الدنيا عندهن حتى صرن لا يصفن إلا هداياه، ولا يرضين إلا ما أتاه، إنه لساحر عظيم أو خادم لبيب، وإني خائف على ما بيده».

وأصبحت علاقته مع صبح شائعة معلومة، وخرجت من أسوار القصر إلى ما وراءه، فتحدث الناس عنها، فارتاب الخليفة المستنصر منه، غير أن حبَّه لمحظيته «صبح البافارية» وقدرتها على الدفاع عن ابن أبي عامر وإبعادها الظنون عنه جعله يخفي غصته ويتحمل ألم شوكته، ودخل حساد ابن أبي عامر ومنافسوه من باب آخر، فتحدثوا عند الخليفة بتبذيره لبيت المال وإسرافه بإنفاقه على أصدقائه وأعوانه، فوجدت تلك النميمة باباً إلى قلبه، وهو المرتاب بابن أبي عامر فهَمَّ بإقصائه، فأمر بمحاسبته للتحقق من حديث الناس، وكان القول فيه حقاً فقد اختفى من بيت المال ما يستحق المحاسبة، لكن ابن أبي عامر الداهية الماكر الفطن سارع إلى الوزير ابن حدير وهو المشهور بالجاه والثراء فشرح له الأمر وطلب منه سد النقص إلى حين، فأعانه وبهذا أفسد أمراً دُبِّرَ بليل، فزادت ثقة الحكم المستنصر فيه وزالت شكوكه نحوه في نساء قصره واستمر كذلك حتى وفاة الحكم، فكان ما كان إلى أن تخلص من المصحفي وأخذ بزمام الأمور.

وكان الخليفة هشام المؤيد بالله صغير السن، ميالاً بجبلَّته إلى الدَّعة واللهو والاستئناس بملذات الدنيا، ولم تكن «صبح» البافارية بالمرأة الحريصة إلى استثارة همته، وردعه عن الخنى، والدفع به إلى الجلَّى، فبقي حبيس ملذاته يستمع إلى الموسيقى ويلاعب الخصيان.

وذكر ابن سعيد أنَّ الحجاري هوَّل حديثه في تخلف هشام المؤيد فقال: «نشأ جامد الحركة، أخرس الشمائل، لا يشك المتفرس فيه أنه نفس حمار في صورة آدمي. وعشق في صباه نباح كلب فجعل الغلمان يهيجونه، حتى ينبح، ليلتذ بذلك. وكلما زاد سناً نقص عقلاً ولما خلعه المهدي وحصل في قبضته قال لأحد غلمانه، وقد ذهبت دولته، وهتك حرمه: بالله انظر هدهدي إن كان سلم، وافتقده لئلا يهلك بالجوع والعطش، فإنه من ذرية الهدهد الذي دل سليمان على عرش بلقيس. قال المأمور بهذا: فكدت والله أخنقه، فيستريح، ويستراح منه.

وكانت أمه «صبح» هي التي أظهرت المنصور بن أبي عامر، ويقال: إنها أرضعته، ولهذا كان يقال له: ظئر هشام، فلما تغلب ولم يرع صبحاً قالت لابنها: أما ترى ما يصنع هذا الكلب؟ فقال: دعيه ينبح لنا، ولا ينبح علينا.

ومن تخلفه أنه رام الصعود إلى برج يتفرج فيه، فنزل في دهليز تحت الأرض، فلما طال عليه النزول، وأظلم المكان، قال للذي معه: يا إنسان! أين أعلى البرج؟! قال: فقلت: يا مولاي، ليس هذا بابه، وإنما هذا باب الدهليز الذي تحت الأرض. قال: صدقت. وإلا لو كان باب البرج كان يكون فيه خابية الماء! (زير الماء) وإنما جعل الخابية شرطاً، لأنه كان له برج يعتاد صعوده، وفي بابه خابية.

ونظر يوماً إلى بغلة كانت من تحف الملوك، وقد جعل على فرجها ما جرت به العادة، خوف تعدى السواس عليها. فقال: لم صنعت هذه الأخراس على حِرِّ هذه البغلة؟ فعرَّفه بالعلة، فقال: فاجعل على حجرها (دُبرها) أخراساً أخرى، فقد يكون في السَّواس لاطَة (يحب اللّواط)! قال: فوالله ما قدرت على أن أملك الضحك، فخالسته، وتحملت على تقطيعه وستره، ثم قلت: يا سيدي، البغلة إذا خِيطَ فرجُها قدرت على أن تبول منه، وكيف تصنع إذا خيط حجرها (دُبرها) بما يخرج منه، قال: صدقت، فاجعل على حراستها شاهدين عدلين يرقُبان ذلك الموضع، فقلت له: سأُكلِّم الحاجب، قال: وانفصلت إلى ابن أبي عامر، لأطرفه بما جرى، فلما أخبرته سجد، وجعل يكرر حمد الله. قال: ثم قال لي: أتعلم أنَّ في هذا الذي أنكرته صلاح المسلمين؟! وذلك أن السلطان الذي تصلح معه الرعية اثنان: إما سلطان قاهر ذو رأي، عارف بما يأتي ويذر، مستبد بنفسه، وإما سلطان مثل هذا تدبر الدنيا باسمه، ولا يخشى المتفرغ لحراسة سلطانه غائلة؛ والمتوسط يُهلِك ويهلَك.

ودخل عليه يوماً أحد الفقهاء؛ ليستفتيه في مسألة تختص بحرمه، فلما فرغ من سؤاله، قال له: يا فقيه، إنا في هذا البستان نعرض لمشاهدة هذه الطيور في مُسافَدتها (تزاوجها)، أتراها تحسب علينا قيادة؟ قال: فقلت له: لا، يا أمير المؤمنين، فقال: الحمد لله وتهلل وجهه، وقال: لقد أزلت عني غماً تراكم في صدري! ثم أمر خادماً واقفاً على

رأسه أن يأتيه بسَفط (كِيس)، فلما كشفه إذا فيه حصى كثير، فقال: كل حصاة منها مقابلة لمجامعة بين طوير، ونحن نسبح الله كل يوم بهذا العدد، ليكفر عنا تلك الهنات، فقلت: الأمر أهون فقد رخص الله لأمير المؤمنين في ذلك.

وكانت له جارية من أحسن ما تقع عليه العين، فلما أراد أن يستفضَّها وجدها ثيباً، فسألها، فقالت: بينما أنا ذات يوم راقدة تحت الشجرة الفلانية في البستان، وإذا بمن نزه الله ذكره عن هذا المكان قد جامعني واستفضني، فاستيقظت، فوجدت الدم على رجلي، وخفت الفضيحة، وكتمت ذلك. فبكى هشام المتخلف، وقال: أبلغت أنا من العناية عند الله أن يأتي من أتاك إلى بستاني ويستفض جاريتي؟ أنت حرة لوجه الله! وأمر في الحين أن تبنى بذلك الموضع رابطة يتعبد فيه. ووجد بخطه على هذا البيت:

ترى بَعْر الآرام في عرصاته ... وقيعانها كأنه حب فلفل

هذا وقت كان بَعْرُ الغزلان فيه يبيس للشمس بدل الزبيب، ويؤكل، فسبحان الذي عوضنا منه بالزبيب الطيب ببركة نبينا محمد ﷺ».

وحاول ابن أبي عامر الحجر عليه ومنع الناس من الاتصال به، إما لغاية في نفسه وهو الأكثر احتمالاً، أو لفساد خِلالٍ في الخليفة خشي افتضاحها.

وقد وصفه ابن الخطيب، فقال: «ولما كان هشام مندرجاً في طي كافله الحاجب المنصور بحيث لاينسب إليه تدبير، ولا يرجع إليه من الأمور قليل أو كثير، إذ كان في نفسه وأصل تركيبه مضعفاً مهيناً مشغولاً بالترهات، ولعب الصبيان والبنات، وفي الكبر بمجالسة النساء، ومحادثة الإماء، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات، المنسوبات».

قال أحد شعراء ذلك العصر يصف الخليفة هشام وأمه «صبح البافارية» والقاضي في ذلك الوقت ابن السليم، ومنه:

اقترب الوعد وحان الهلاك ... وكل ما تحذره قد أتاك

خليفة يلعب في مكتب ... أمُّه حُبْلَى وقاضٍ.....

والغريب في الأمر أنه لم يخرج أسد من أسود بني أمية من عرينه ولم يثب أحدهم فوق سور شجنه فدانت الدنيا لابن أبي عامر، قال الشاعر:

أبني أمية، أين أقمار الدجى منكم؟ وأين نجومها والكوكب؟
غابت أسود منكم في غابها فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

obeikandl.com